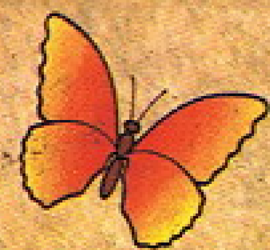


كتب الفراشة - القصص العالميّة

البَيتُ المُوحِش

(بليك هاوْس)



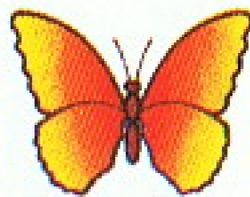
كتب الفراشة - القصص العالميّة

البَيْتُ المُوحِش
(بليك هاوْس)



تأليف : تشارلز ديكِنز

ترجمة : هاني تابْري



مكتبة لبْنان ناشِرُون

مَكتبة لبنان ناشِرون ش.م.ل
زقاق البلاط - ص.ب: ١١-٩٢٣٢
بيروت - لبنان
وُكلاء ومُوزِّعون في جميع أنحاء العالَم

الطبعة الأولى ١٩٩٥
رقم الكتاب 01 C 196822
طُبعَ في لبنان



مقدّمة

وُلِدَ تشارلْز ديكنز في العامِ ١٨١٢، وقَدْ قاسَى في طُفولَتِهِ مِنْ وَضْعٍ مَعيشِيٍّ سَيِّئٍ نَتيجَةً لِفَقْرِ عائِلَتِهِ. لٰكِنَّ مَوْهِبَتَهُ الأَدَبِيَّةَ مَكَّنَتْهُ مِنَ التَّأَلُّقِ مُنْذُ مَطْلَعِ شَبابِهِ، حَتّى إِنَّهُ لَمّا تُوُفِّيَ في العامِ ١٨٧٠ كانَ قَدْ عَرَفَ شُهْرَةً واسِعَةً وجَنَى ثَرْوَةً كَبيرَةً. وبِالرَّغْمِ مِنْ هٰذا التَّحَوُّلِ في حَياتِهِ لَمْ يَنْسَ قَطُّ أَيّامَ طُفولَتِهِ البائِسَةِ، إِذْ كانَ يَتَحَسَّسُ المَشاكِلَ الَّتي يَرْزَحُ تَحْتَها مَلايينُ النّاسِ في ذٰلِكَ العَصْرِ، فَجَعَلَ هَمَّهُ الأَوَّلَ تَصْويرَ حالَةِ البُؤْسِ تِلْكَ والدَّعْوَةَ لِتَغْييرِها.

لِذٰلِكَ نَجِدُ في هٰذِهِ الرِّوايَةِ صُورَةً شامِلَةً لِلْمُجْتَمَعِ الإنكليزِيِّ في مُنْتَصَفِ القَرْنِ التّاسِعَ عَشَرَ، مَعَ أَنَّ الأَحْداثَ تَتَرَكَّزُ حَوْلَ شَخْصِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ هي إِسْتر سَمِرْسون الّتي تُحاوِلُ أَنْ تَكْتَشِفَ هُوِيَّةَ والِدَيْها. تَنْطَلِقُ القِصَّةُ مِنْ وَسَطِ لندن حَيْثُ تُتابِعُ المَحْكَمَةُ العُلْيا النَّظَرَ في قَضِيَّةِ «جارنْدايس» مُنْذُ سِنينَ طَويلَةٍ. ونَكْتَشِفُ، مَعَ تَطَوُّرِ الأَحْداثِ، فَسادَ النِّظامِ القَضائِيِّ ونَفاذَ هٰذا الفَسادِ إلى أَفْرادِ المُجْتَمَعِ كُلِّهِ مِنَ الكَنّاسِ الفَقيرِ جو الّذي يَعيشُ في زُقاقٍ وَضيعٍ بِلَنْدن إلى البارونِ الثَّرِيِّ السِّير ليسْتِر ديدْلوك الّذي يَعيشُ في قَصْرِهِ الفَخْمِ.

رِوايَةُ «بليك هاوْس» [Bleak House] لَيْسَتْ صَرْخَةً ضِدَّ المُجْتَمَعِ الظّالِمِ فَحَسْبُ، إِنَّما هِيَ أَيْضًا رِوايَةٌ مُشَوِّقَةٌ، يَتَنَقَّلُ فيها القارِئُ مِنْ حَدَثٍ لِآخَرَ حابِسًا أَنْفاسَهُ ومُتَسائِلًا: مَنْ هُما والِدا إِسْتر؟ مَنْ هُوَ هٰذا الرَّجُلُ الّذي وُجِدَ مَيْتًا ولا أَحَدَ يَعْرِفُ اسْمَهُ؟ ما هُوَ السِّرُّ الكَبيرُ في ماضي اللَّيدي ديدْلوك؟ وهَلِ اكْتَشَفَ المُحامي

الشِّرّيرُ تلْكِنغْهورْن هٰذا السِّرَّ؟ مَنْ هِيَ هٰذِهِ السَّيِّدَةُ الّتي ظَهرَتْ مَرَّتَيْنِ وهِيَ تَلُفُّ وَجْهَها بِنِقابٍ؟ لِماذا قُتِلَ المُحامي؟ فَالأَحْداثُ تَتسارَعُ حَتّى تَنْتَهِيَ بِعَمَليَّةِ بَحْثٍ شاقَّةٍ عَبْرَ إنكلْترا، وتَتَعقَّدُ سِلْسِلَةُ الغَوامِضِ فَتَكْتَنِفُ كُلَّ شَخْصِيّاتِ الرِّوايَةِ رابِطَةً إيّاهُمْ - بِشَكْلٍ أَوْ بِآخَرَ - بِقَضِيَّةِ «جارنْدايْس».

وقَدْ حَشَدَ ديكنْز في هٰذِهِ الرِّوايَةِ جَمْعًا مِنَ الشَّخْصِيّاتِ، تَرْتَبِطُ كُلُّها بِالحَبْكَةِ الأَساسِيَّةِ: فَهُناكَ الرَّجُلُ الطَّيِّبُ السَّيِّدُ جون جارنْدايْس مالِكُ «بليك هاوْس» والمُحْسِنُ إلى كُلٍّ مِنْ إسْتر وريتْشارْد وآدا المَوْضوعينَ تَحْتَ وِصايَتِهِ. وهُناكَ ضَحايا النِّظامِ التَّشْريعِيِّ كَالعانِسِ العَجوزِ الآنِسَةِ فلايْت وجيني زَوْجَةِ عامِلِ البِناءِ. وهُناكَ المُنْتَفِعونَ مِنْ هٰذا الفَسادِ كَالسَّيِّدِ كروك الغَريبِ الأَطْوارِ والسَّيِّدِ غوپي ذي الآراءِ والمَواقِفِ السَّخيفَةِ. ثُمَّ هُناكَ السَّيِّدُ باكِت، وهُوَ أَوَّلُ شَخْصِيَّةِ شُرْطِيٍّ سِرِّيٍّ تَظْهَرُ في الأَدَبِ الإنكليزِيِّ.

إنَّ رِوايَةَ «بليك هاوْس» تَأْسِرُ القارِئَ مِنْ صَفْحَتِها الأُولى حَتّى الأَخيرَةِ. فَديكنْز يَقودُنا، بِعَبْقَرِيَّتِهِ الفَذَّةِ، إلى عالَمٍ مُتَنَوِّعٍ نَرى فيهِ شَخْصِيّاتٍ كاريكاتورِيَّةً ساخِرَةً وأُناسًا أَنْذالًا وضَحايا بَريئَةً حَوْلَ البَطَلَةِ الطَّيِّبَةِ المَحْبوبَةِ، كَما يَنْتَقِلُ بِنا مِنْ أَجْواءِ المَحْكَمَةِ الضَّبابِيَّةِ إلى ذٰلِكَ القَصْرِ القاتِمِ «تشِسْني وُلْد» إلى أَزِقَّةِ البُؤْسِ والفَقْرِ في لَنْدن. وهٰذا الخَليطُ مِنَ الشَّخْصِيّاتِ والأَماكِنِ والأَجْواءِ هُوَ خَيْرُ مُعَبِّرٍ عَنِ العَصْرِ الڤِكْتورِيِّ في إنكلْترا.



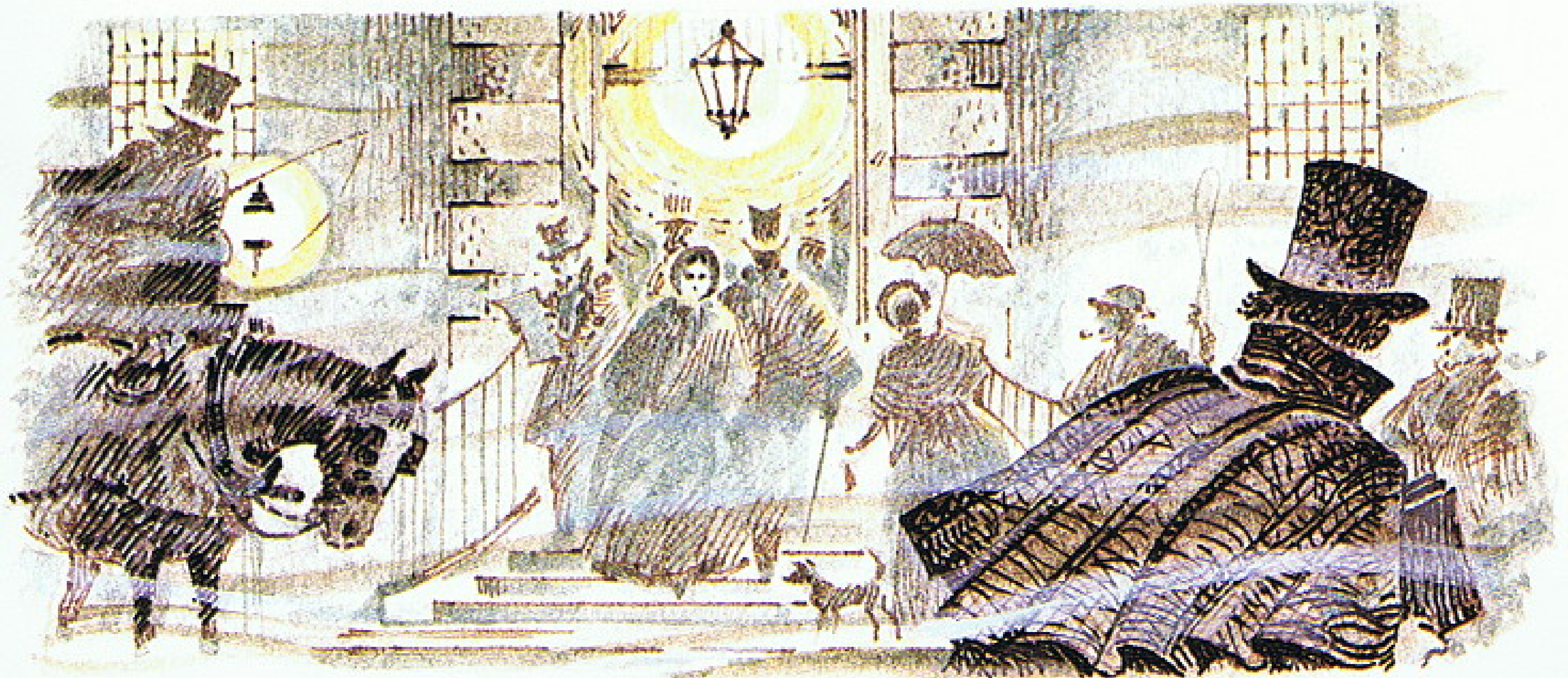
البَيت الموحِش (بليك هاوْس)

المَحْكَمَة العُلْيا

طَقْسُ لنْدن، كَعادَتِهِ في شَهْرِ تِشْرينَ الثّاني (نوفمبر)، كَئيبٌ شَديدُ الوَطْأَةِ، فَالدُّخانُ يَهْبِطُ مُتَثاقِلًا مِنْ مَداخِنِ السُّطوحِ إلى الشَّوارِعِ المَغْمورَةِ بِالماءِ والوَحْلِ، والضَّبابُ يَلُفُّ كُلَّ أَرْجاءِ المَدينَةِ، وخُصوصًا في مِنْطَقَةِ المَحْكَمَةِ العُلْيا حَيْثُ يَجْلِسُ قاضي القُضاةِ مُتَرَبِّعًا على عَرْشِ مَجْدِهِ الضَّبابِيِّ المُظْلِمِ.

هٰذِهِ المَحْكَمَةُ تَخْتَصُّ بِالقَضايا الكُبْرى المُعَقَّدَةِ. والقَضِيَّةُ الّتي تَنْظُرُ فيها، في هٰذا اليَوْمِ المُكْفَهِرِّ، هِيَ قَضِيَّةُ «جارنْدايْس»، وهِيَ دَعْوى كُبْرى لَمْ تَنْتَهِ فُصولُها مُنْذُ عِدَّةِ أَجْيالٍ.

أَجَّلَ قاضي القُضاةِ إِكْمالَ النَّظَرِ في القَضِيَّةِ أُسْبوعًا، وغادَرَ القاعَةَ إلى غُرْفَتِهِ الخاصَّةِ. والشَّيْءُ الوَحيدُ الّذي اتَّخَذَ بِشَأْنِهِ قَرارًا هُوَ أَنَّ الآنِسَةَ آدا كلير والسَّيِّدَ ريتْشارْد كارْستون - وهُما مَوْضوعانِ تَحْتَ الوِصايَةِ - يَجِبُ أَنْ يُقيما مَعَ السَّيِّدِ جارنْدايْس في مَنْزِلِهِ «بليك هاوْس».



وَيَبْدو أَنَّ روحَ الرَّتابَةِ العَقيمَةِ تَمْتَدُّ إلى خارِجِ المَحْكَمَةِ. فَقَدْ رَجَعَتِ اللّيدي ديدْلوك إلى بَيْتِها في لَنْدن، وتَرَكَتْ مَنْزِلَها «تشِسْني وُلْد» في لِنْكولْنشِر تَحْتَ رِعايَةِ مُدَبِّرَةِ مَنْزِلِها. وقَدْ رافَقَها زَوْجُها البارونُ السِّير ليسْتِر ديدْلوك، وهُوَ رَجُلٌ مَهيبٌ يَكْبُرُها بِعِشْرينَ سَنَةً. إسْتَقْبَلَ السِّير ليسْتِر وزَوْجَتُهُ مُسْتَشارَهُما القانونِيَّ الأُسْتاذَ تُلْكِنْغهورْن، وهُوَ مُحامٍ في المَحْكَمَةِ العُلْيا.

والأُسْتاذُ تُلْكِنْغهورْن يَتَمَتَّعُ بِشُهْرَةٍ واسِعَةٍ وسُمْعَةٍ طَيِّبَةٍ، لِذٰلِكَ كانَ يَعْرِفُ الكَثيرَ مِنْ أَسْرارِ العائِلاتِ بِحُكْمِ عَمَلِهِ. بَدَأَ المُحامي حَديثَهُ بِإطْلاعِهِما عَلى تَطَوُّراتِ قَضِيَّةِ «جارنْدايس». ولٰكِنَّ اللّيدي ديدْلوك قاطَعَتْهُ مُطالِبَةً بِالابْتِعادِ عَنْ ذِكْرِ فَضائِحِ النّاسِ.

ثُمَّ أَدارَتِ اللّيدي ديدْلوك وَجْهَها نَحْوَ المَوْقِدِ، ومِرْوَحَتُها بِيَدِها، ورَأَتْ أَوْراقَ المُحامي عَلى الطّاوِلَةِ، فَسَأَلَتْ: «مَنِ الّذي نَسَخَ هٰذِهِ الأَوْراقَ»؟ وأَخَذَتْ تُلَوِّحُ بِمِرْوَحَتِها أَمامَ وَجْهِها الّذي بَدا شاحِبًا، بِالرَّغْمِ مِنْ جُلوسِها قُبالَةَ النّارِ. أَجابَ تُلْكِنْغهورْن: «لَسْتُ أَدْري»، ولٰكِنَّهُ صَمَّمَ - بَيْنَهُ وبَيْنَ نَفْسِهِ - عَلى مَعْرِفَةِ حَقيقَةِ الأَمْرِ.

قِصَّة إسْتر - ١: طُفولَتي

إسْمي إسْتر. أَوَّلُ ما أَذْكُرُهُ مِنْ طُفولَتي هُوَ أَنَّني رُبِّيْتُ عِنْدَ عَرّابَتي، وكانَتِ امْرَأَةً طَيِّبَةً. كُنْتُ أَعْتَقِدُ أَنَّ الشَّرَّ المَوْجودَ لَدى الآخَرينَ هو سَبَبُ عُبوسِها الدّائِمِ.

أَنا لا أُنْكِرُ فَضْلَها عَلَيَّ، ولٰكِنّي لا أَنْسى أَنَّ طُفولَتي لَمْ تَكُنْ سَعيدَةً، فَقَدْ كانَ هُناكَ مَسافَةٌ بَيْنَنا مِمّا سَبَّبَ لي حُزْنًا لاِعْتِقادي أَنَّني كُنْتُ سَبَبَ هٰذا الجَفاءِ.



وقَدْ تأَكَّدَ ظَنّي هٰذا يَوْمَ عيدِ ميلادي عِنْدَما نَظَرتْ إليَّ عَرّابَتي مُتَجَهِّمَةَ الوَجْهِ وصَرَّحَتْ أَنَّهُ كانَ مِنَ الأَفْضَلِ لَوْ لَمْ أُولَدْ. فَانْفَجَرْتُ باكِيَةً، ورَجَوْتُها أَنْ تُخْبِرَني ما إذا كانَتْ أُمّي قَدْ تُوُفِّيَتْ وهِيَ تَلِدُني، فَأَجابَتْ: «إنَّ أُمَّكِ، يا إسْتر سَمِرْسون، عارٌ عَلَيْكِ وأَنْتِ عارٌ عَلَيْها. لٰكِنّي غَفَرْتُ لَها كُلَّ إساءاتِها. أَمّا أَنْتِ، أَيَّتُها التَّعِسَةُ، فَصَلّي كَيْ لا تَدْفَعي ثَمَنَ أَخْطاءِ الآخَرينَ». وصَرَفَتْني مِنْ أَمامِها، فَصَعِدْتُ إلى غُرْفَتي وغَرِقْتُ في بُكاءٍ مَريرٍ إلى أَنْ غَفَوْتُ.

بَعْدَ ذٰلِكَ، زادَتِ الهُوَّةُ بَيْننا، ولَمْ تُحاوِلْ عَرّابَتي يَوْمًا أَنْ تَكْسِرَ الجَليدَ، ولَوْ بِكَلِمَةٍ لَطيفَةٍ. وكَذٰلِكَ كانَ مَوْقِفُ السَّيِّدَةِ راتْشِل مُدَبِّرَةِ المَنْزِلِ.



تُوُفِّيَتْ عَرّابَتي بَعْدَ ذٰلِكَ بِسَنَتَيْنِ. وقَبْلَ وَفاتِها بَكَيْتُ بِحَرارَةٍ ورَجَوْتُها الصَّفْحَ، لٰكِنَّها ظَلَّتْ صامِتَةً بارِدَةً حَتّى آخِرِ لَحْظَةٍ مِنْ حَياتِها.

ثُمَّ تَغَيَّرَ وَجْهُ حَياتي وأَشْرَقَ. فَبَعْدَ بِضْعَةِ أَيّامٍ، زارَني رَجُلٌ وَقورٌ مَهيبٌ، يُدْعى السَّيِّدَ كِنج، أَذْهَلَني عِنْدَما كَشَفَ لي أَنَّ عَرّابَتي كانَتْ، في الحَقيقَةِ، خالَتي. وأَعْلَمَني أَنَّ رَجُلًا، يُدْعى السَّيِّدَ جون جارنْدايْس، قَدْ عَلِمَ بِحالي، فَتَكَفَّلَ بِمَصاريفِ إِكْمالِ تَعْليمي في مِنْطَقَةِ ريدِنْغ. وهٰكَذا حَمَلَتْني دُوّامَةٌ مِنَ الذُّهولِ والحَيْرَةِ والشُّعورِ بِالامْتِنانِ إِلى عَرَبَةٍ أَقَلَّتْني إِلى غرينْلِيف حَيْثُ مَكَثْتُ سِتَّ سَنَواتٍ قَضَيْتُها في هَناءٍ وسَعادَةٍ.

خِلالَ تِلْكَ السَّنَواتِ، لَمْ أَلْتَقِ بِذٰلِكَ الرَّجُلِ الَّذي أَحْسَنَ إِلَيَّ. لِذٰلِكَ لا يُمْكِنُني أَنْ أَصِفَ حَقيقَةَ ما أَحْسَسْتُ بِهِ عِنْدَما تَسَلَّمْتُ رِسالَةً مِنَ السَّيِّدِ كِنج يُعْلِمُني فيها بِوُجوبِ الرَّحيلِ إِلى لَنْدن، حَيْثُ كُنْتُ سَأَلْتَقي بِالآنِسَةِ آدا كلير المَوْضوعَةِ تَحْتَ وِصايَةِ السَّيِّدِ جارنْدايْس.

كانَ الجَوُّ قاتِمًا والضَّبابُ كَثيفًا في ذٰلِكَ اليَوْمِ الَّذي أُدْخِلْتُ فيهِ إِلى الغُرْفَةِ الخاصَّةِ بِقاضي القُضاةِ في مَبْنى المَحْكَمَةِ العُلْيا.

أَوْصَلَني إِلى تِلْكَ الغُرْفَةِ مُوَظَّفٌ شابٌّ يُدْعى السَّيِّدَ غوبي. وقَدْ أَشارَ إِلى أَنَّني أُشْبِهُ إِحْدى سَيِّداتِ الطَّبَقَةِ الأَرِسْتُقْراطِيَّةِ، فَلَمْ أُلْقِ لِكَلامِهِ بالًا. لٰكِنَّني أَذْكُرُ هُنا مُلاحَظَتَهُ تِلْكَ لِما لَها مِنْ أَهَمِّيَّةٍ سَتَظْهَرُ لاحِقًا.

لَدى دُخولي الغُرْفَةَ، شاهَدْتُ أَجْمَلَ فَتاةٍ رَأَيْتُها في حَياتي. كانَت صاحِبَةَ وَجْهٍ طاهِرٍ، وقَدْ واجَهَتْني بِنَظْرَةٍ صافِيَةٍ وبَسْمَةٍ رَقيقَةٍ أَوْحَتْ إِلَيَّ بِالثِّقَةِ. ثُمَّ تَعَرَّفْتُ بِالسَّيِّدِ ريتْشارْد كارْستون الَّذي تَرْبُطُهُ بِالآنِسَةِ آدا كلير صِلَةٌ عائِلِيَّةٌ بَعيدَةٌ. كانَ كارْستون فَتًى وَسيمًا جَذّابًا، وكانَ سَيَذْهَبُ مَعَنا أَيْضًا لِلْعَيْشِ في "بليك هاوْس" مَنْزِلِ السَّيِّدِ جارنْدايْس. وقَدْ أَحْسَسْتُ أَنَّ عُرى الصَّداقَةِ بَدَأَتْ تَتَوَطَّدُ فيما بَيْنَنا نَحْنُ الثَّلاثَةَ مُنْذُ أَنِ الْتَقَيْنا.

بَعْدَ أَنْ بِتْنا لَيْلَتَنا في نُزُلٍ قَريبٍ، خَرَجْنا في الصَّباحِ لِنَتَنَزَّهَ بِانْتِظارِ أَنْ يَحينَ مَوْعِدُ انْطِلاقِ العَرَبَةِ إلى «بليك هاوْس»، وسَرْعانَ ما وَجَدْنا أَنْفُسَنا أَمامَ حَديقَةِ جَمْعِيَّةِ المُحامينَ. وقَدْ فوجِئْنا لَمّا رَأَيْنا، في الجِهَةِ المُقابِلَةِ مِنَ الشّارِعِ، امْرَأَةً عَجوزًا تُلَوِّحُ لَنا بِيَدَيْها. ثُمَّ اتَّجَهَتْ نَحْوَنا وحَيَّتْنا بِلَهْجَةٍ وُدِّيَّةٍ لَطيفَةٍ.

تَذَكَّرَ ريتْشارْد أَنَّهُ كانَ قَدْ رَآها في المَحْكَمَةِ في اليَوْمِ السّابِقِ. قَدَّمَتْ لَنا نَفْسَها بِاسْمِ الآنِسَةِ فلايْت ودَعَتْنا لِزِيارَتِها، فَتَبِعْناها إلى مَبْنًى، في الطّابَقِ الأَوَّلِ مِنْهُ حانوتٌ كُتِبَ فَوْقَهُ: «مَخْزَن كروك لِلْوَثائِق والزُّجاج».



لَدى دُخولِنا المَخزَنَ وَجَدْنا أَنَّهُ مَليءٌ بِأَكْوامٍ مِنْ لَفائِفَ وَرَقِيَّةٍ باهِتَةٍ ووَثائِقَ قانونِيَّةٍ مُهْتَرِئَةٍ وكَثيرٍ مِنَ المَفاتيحِ الصَّدِئَةِ. وقَدْ بَرَزَ أَمامَنا، مِنْ بَيْنِ تِلْكَ الأَكْوامِ، رَجُلٌ عَجوزٌ قَصيرٌ، جِسْمُهُ مُشَوَّهٌ كَأَنَّهُ جيفَةٌ. فَتَراجَعْنا إلى الوَراءِ مُسْتَغْرِبينَ، لٰكِنَّ الآنِسَةَ فلايْت أَشارَتْ إِلَيْهِ بِيَدِها لِيَبْتَعِدَ عَنْ طَريقِنا، ودَعَتْنا لِصُعودِ الدَّرَجِ وراءَها.

فيما نَحْنُ نَصْعَدُ إلى الدَّوْرِ الأَخيرِ سَأَلَ كارْستون عَنْ ذٰلِكَ العَجوزِ القَبيحِ، فَأَخْبَرَتْنا الآنِسَةُ فلايْت أَنَّهُ السَّيِّدُ كروك صاحِبُ النُّزُلِ، وأَنَّهُ في غايَةِ الجُنونِ، ومَهْوُوسٌ بِتَجْميعِ كُلِّ تِلْكَ الأَوْراقِ واللَّفائِفِ الّتي يَرى أَنَّها وَثائِقُ هامَّةٌ، مَعَ أَنَّهُ لا يَكادُ يُحْسِنُ القِراءَةَ!

كانَتْ غُرْفَةُ الآنِسَةِ فلايْت نَظيفَةً لٰكِنَّها شِبْهُ خالِيَةٍ. وقَدْ أَخْبَرَتْنا تِلْكَ المَرْأَةُ الفَقيرَةُ أَنَّها تَشَرَّفَتْ بِزِيارَتِنا، واعْتَذَرَتْ لِأَنَّها لَمْ تَتَمَكَّنْ مِنْ تَقْديمِ الشّوكولاتَةِ. وأَعْلَمَتْنا أَنَّها كانَتْ تَنْتَظِرُ صُدورَ حُكْمٍ في قَضِيَّةٍ ما سَتَتَمَكَّنُ بِنَتيجَتِهِ مِنْ تَحْسينِ أَوْضاعِها المادِّيَّةِ.

اِنْتَهَتْ زِيارَتُنا لَمّا سَمِعْنا صَوْتَ جَرَسٍ يَدُقُّ. فَاعْتَذَرَتِ الآنِسَةُ فلايْت وأَرادَتِ الانْصِرافَ لِلتَّوَجُّهِ إلى المَحْكَمَةِ. وفيما نَحْنُ نَنْزِلُ الدَّرَجَ، أَشارَتْ، في الدَّوْرِ الثّاني، إلى بابٍ داكِنِ اللَّوْنِ وقالَتْ هامِسَةً: «هٰذِهِ غُرْفَةُ النَّزيلِ الآخَرِ الوَحيدِ، في هٰذا النُّزُلِ، وهُوَ كاتِبٌ في الشُّؤونِ القانونِيَّةِ. يُقالُ إِنَّهُ باعَ نَفْسَهُ لِلشَّيْطانِ!» لِذٰلِكَ تَنَفَّسْنا الصُّعَداءَ لَدى ابْتِعادِنا عَنْ ذٰلِكَ المَبْنى الغَريبِ.

في السّاعَةِ الواحِدَةِ جاءَتْ عَرَبَتانِ، واحِدَةٌ لَنا، وأُخْرى لِنَقْلِ الأَمْتِعَةِ. وبَعْدَ عِشْرينَ دَقيقَةً كُنّا نُغادِرُ لَنْدن في طَريقِنا إلى «بليك هاوْس».



قِصَّة إسْتر - ٣: في بليك هاوس

كانَ اللَّيْلُ قَدْ أَطْبَقَ على سانت أَلْبانز عِنْدَما وَصَلْنا إِلَيْها. ويَقَعُ بليك هاوس بِالقُرْبِ مِنْ تِلْكَ البَلْدَةِ. سَلَكَتِ العَرَبَةُ طَريقًا طَويلًا بَيْنَ الأَشْجارِ، ثُمَّ وَصَلَتْ إلى بَيْتٍ قَديمِ الطِّرازِ، أَمامَهُ ساحَةٌ مُسْتَديرَةٌ. تَرَجَّلْنا مِنَ العَرَبَةِ، وأَخَذْنا نَشْعُرُ بِالارْتِباكِ عِنْدَما رَأَيْنا رَجُلًا يَخْرُجُ لِمُلاقاتِنا بِكُلِّ حَفاوَةٍ وتَرْحابٍ قائِلًا: «عَزيزَتي آدا، عَزيزَتي إسْتر، أَهْلًا أَهْلًا... كَيْفَ حالُكَ يا ريتْشارْد؟ إنّي مَسْرورٌ لِلِقائِكُمْ... أَهْلًا بِكُمْ في بَيْتِكُمْ».

إِنَّهُ السَّيِّدُ جون جارنْدايس. وهُوَ رَجُلٌ قارَبَ السِّتّينَ، لٰكِنَّهُ قَوِيُّ البِنْيَةِ. وقَدْ عَلَتْ وَجْهَهُ الوَضّاحَ ابْتِسامَةٌ تَدُلُّ على حَيَوِيَّتِهِ.

في اليَوْمِ التّالي اسْتَكْشَفْتُ المِنْطَقَةَ المُحيطَةَ بِالمَنْزِلِ، فَمَرَرْتُ بِحَديقَةِ الأَزْهارِ وبُسْتانِ الخُضَرِ ومِضْمارِ تَرْويضِ الخَيْلِ وفِناءِ المَزْرَعَةِ. ولَمّا دَخَلْتُ



المَنْزِلَ بَعْدَ تِلْكَ الجَوْلَةِ أَحْسَسْتُ بِجَوِّهِ الدّافِئِ المُريحِ، فَخِلْتُ أَنَّني في مَنْزِلي بِالفِعْلِ. بَعْدَ قَليلٍ دَخَلَ وَلِيُّ أَمْري - فَالسَّيِّدُ جارنْدايس طَلَبَ مِنّي أَنْ أُنادِيَهُ بِهٰذِهِ الصِّفَةِ - وناوَلَني رِزْمَةَ مَفاتيحَ وكَلَّفَني تَدْبيرَ شُؤونِ المَنْزِلِ.

غَمَرَني السُّرورُ لِثِقَتِهِ تِلْكَ، وكادَتْ دُموعُ الفَرَحِ تَطْفِرُ مِنْ عَيْنَيَّ. ولَمّا حاوَلْتُ أَنْ أَشْكُرَهُ رَبَّتَ على كَتِفي وقاطَعَني قائِلًا: «لا تَتَفَوَّهي بِمِثْلِ هٰذا الكَلامِ». فَصَمَّمْتُ عِنْدَئِذٍ على أَنْ أَعْمَلَ بِإِخْلاصٍ كَتَعْبيرٍ عَمَلِيٍّ عَنْ تَقْديري لِهٰذا الرَّجُلِ الشَّهْمِ الَّذي لا يَنْتَظِرُ سَماعَ عِباراتِ الشُّكْرِ.

قِصَّة إسْتر - ٤: الزِّيارَة المَشْؤومَة

كُنْتُ أُمْضي الوَقْتَ مَعَ العَزيزَةِ آدا في القِراءَةِ أَوِ العَمَلِ مَعًا. وكُنّا مَسْرورَتَيْنِ جِدًّا، فَمَرَّتِ الأَيّامُ مِنْ دونِ أَنْ نُحِسَّ بِها. وتَوَطَّدَتِ العَلاقَةُ بَيْنَ آدا وريتْشارْد، ونَمَتِ المَحَبَّةُ بَيْنَهُما. والحَقيقَةُ أَنَّ ريتْشارْد إنْسانٌ صَريحٌ وشَهْمٌ، وقادِرٌ على أَنْ يُشيعَ حَوْلَهُ جَوًّا مِنَ الأُلْفَةِ والمَرَحِ.

وبِما أَنَّني أَتَحَدَّثُ عَنِ العَواطِفِ، يَجْدُرُ بي أَنْ أَذْكُرَ تِلْكَ الزِّيارَةَ الَّتي قامَ بِها السَّيِّدُ غوپي، المُوَظَّفُ الشّابُّ الَّذي كُنْتُ قَدِ الْتَقَيْتُ بِهِ في المَحْكَمَةِ بِلَنْدن. جاءَ إِلى بليك هاوس لِيَبْحَثَ أَمْرًا ما مَعَ السَّيِّدِ جارنْدايْس. وهٰذا الأَمْرُ لا يَتَعَلَّقُ بِمَوْضوعِ الدَّعْوى الَّتي كانَ السَّيِّدُ جارنْدايْس يُتابِعُها بِاشْمِئْزازٍ. وبَعْدَ انْتِهاءِ حَديثِهِما طَلَبَ مُقابَلَتي.

فاجَأَني غوپي بِطَلَبٍ سَخيفٍ، إِذْ عَرَضَ عَلَيَّ الزَّواجَ. فَأَخْبَرْتُهُ أَنْ لا مَجالَ لِذٰلِكَ. ولَمْ أَكُنْ لِأَذْكُرَ هٰذِهِ الحادِثَةَ لَوْ لَمْ يَكُنْ لَها عَلاقَةٌ بِفُصولٍ أُخْرى مِنْ قِصَّتي.



إلى جانِبِ هٰذِهِ الزِّيارَةِ، لَمْ يَحْدُثْ ما يُعَكِّرُ صَفْوَ أيّامِنا الأُولى في بلِيك هاوْس سِوى حادِثَةٍ واحِدَةٍ:

جاءَتْ لِزِيارَتِنا يَوْمًا امْرَأَةٌ تُدْعَى السَّيِّدَةَ پارْدِغل، وهِيَ امْرَأَةٌ مُحْسِنَةٌ لٰكِنَّها ثَرْثارَةٌ. طَلَبَتْ مِنّا أَنْ نُرافِقَها إلى بَيْتِ أَحَدِ عُمّالِ البِناءِ في مِنْطَقَةٍ مُجاوِرَةٍ مَلِيئَةٍ بِأَكْواخٍ بَسيطَةٍ. دَخَلَتِ السَّيِّدَةُ پارْدِغل مُباشَرَةً كَأَنَّها شُرْطِيٌّ يَقْتَحِمُ مَنْزِلًا مَشْبوهًا. فَتَبِعْتُها أَنا وآدا، ولَمّا خَرَجَتْ بَقينا في الدّاخِلِ. ثُمَّ اقْتَرَبْنا مِنِ امْرَأَةٍ جالِسَةٍ قُرْبَ المَوْقِدِ تَحْمِلُ بَيْنَ يَدَيْها طِفْلَةً مُضْطَرِبَةً، بَدا أَنَّها مَريضَةٌ. دَنَتْ آدا مِنَ الطِّفْلَةِ بِحُنُوٍّ ووَضَعَتْ يَدَها عَلى خَدِّها، ولٰكِنَّها فارَقَتِ الحَياةَ في تِلْكَ اللَّحْظَةِ، فَتَوَجَّهَتْ آدا إِلَيَّ مُوَلْوِلَةً: «إسْتر، لَقَدْ ماتَتِ الصَّغيرَةُ... ماتَتِ الطِّفْلَةُ المِسْكينَةُ!»

تَقَدَّمْتُ مِنَ الأُمِّ وأَخَذْتُ الطِّفْلَةَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْها ووَضَعْتُها عَلى طاوِلَةٍ خَشَبِيَّةٍ وغَطَّيْتُها بِمِنْديلي.

ثُمَّ دَخَلَتِ البَيْتَ امْرَأَةٌ قَبيحَةٌ، وهِيَ تَنوحُ وتَصْرُخُ: «جيني، جيني!» وأَخَذَتْ تُواسي الأُمَّ وتَبْكي مَعَها.

بَعْدَ ذٰلِكَ غادَرْنا المَنْزِلَ بِهُدوءٍ. وقَدْ عُدْتُ في اليَوْمِ التّالي وكانَتِ الطِّفْلَةُ لا تَزالُ مُغَطّاةً بِمِنْديلي وحَوْلَها بَعْضُ الأَزْهارِ.

تَقَدَّمْتُ ورَفَعْتُ المِنْديلَ، وأَلْقَيْتُ نَظْرَةً أَخيرَةً عَلى ذٰلِكَ الوَجْهِ الصَّغيرِ.

كاتِب الشُّؤون القانونِيَّة

نَعودُ إلى لَنْدن. كانَتِ السّاعَةُ تُشيرُ إلى الخامِسَةِ بَعْدَ الظُّهْرِ عِنْدَما غادَرَ الأُسْتاذُ تلْكِنْغهورْن مَكْتَبَهُ مُتَوَجِّهًا إلى مَكْتَبِ السَّيِّدِ سناغسبي.

عِنْدَما خَفَّ السَّيِّدُ سناغْسبي لاِسْتِقْبالِ زائِرِهِ بِحَرارَةٍ، أَخْرَجَ تلْكِنغْهورْن مِنْ جَيْبِهِ وَثيقَةً يَعْتَقِدُ أَنَّها مَكْتوبَةٌ بِخَطِّ أَحَدِ الكَتَبَةِ في الشُّؤونِ القانونِيَّةِ الّذينَ يَتَعامَلُ مَعَهُم سناغْسبي. وَقَدْ أَكَّدَ سناغْسبي هٰذا الأَمْرَ، وَأَضافَ أَنَّهُ عَلى اسْتِعْدادٍ لِمُرافَقَةِ تلْكِنغْهورْن إلى مَكانِ إقامَتِهِ في نُزُلِ السَّيِّدِ كروك.

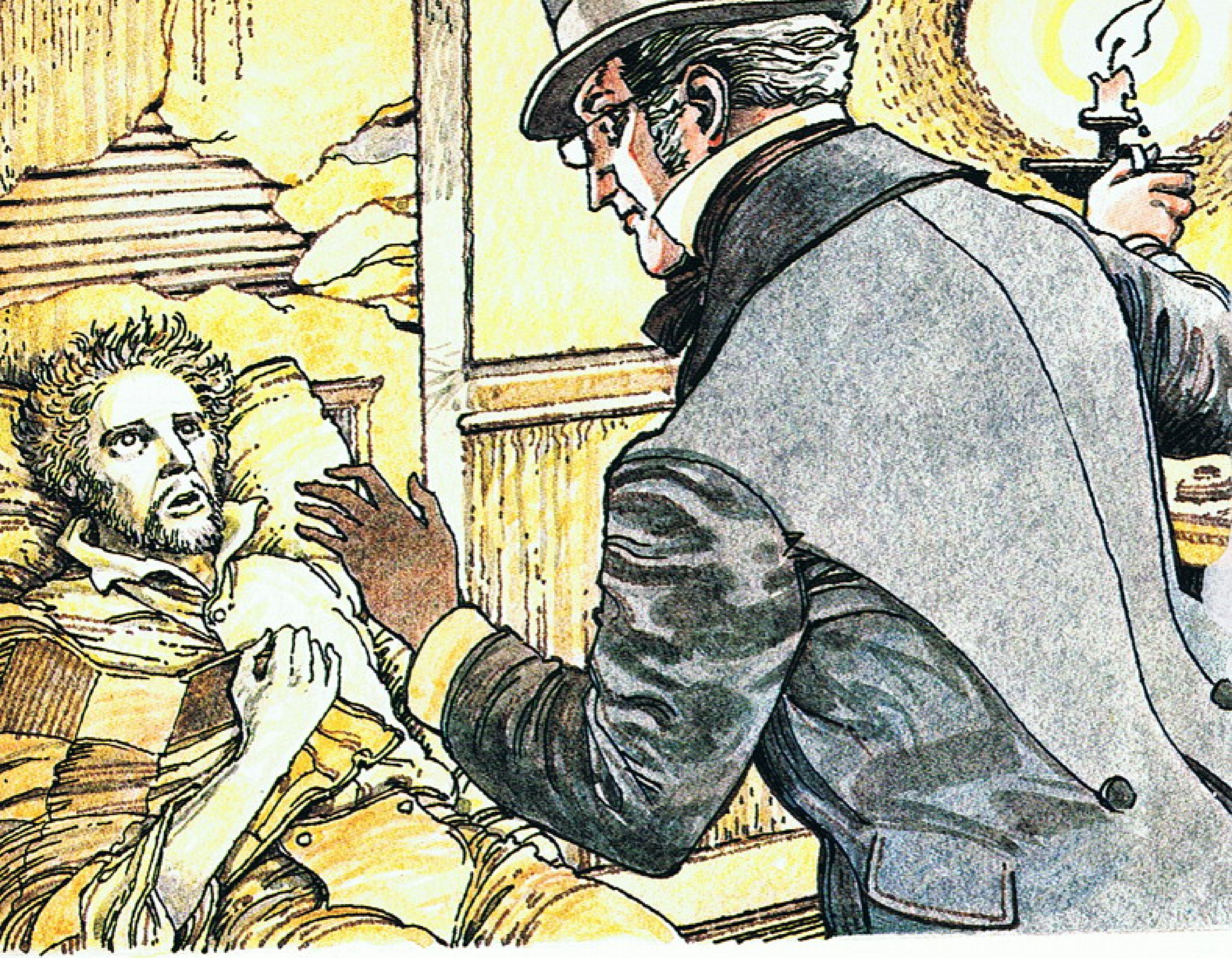
قالَ تلْكِنغْهورْن لَدى وُصولِهِما أَمامَ المَبْنى: «شُكْرًا لَكَ يا سَيِّدي. لَنْ أَدْخُلَ الآنَ. إلى اللِّقاءِ». وافْتَرَقَ الرَّجُلانِ، لٰكِنَّ الأُسْتاذَ تلْكِنغْهورْن عادَ بَعْدَ قَليلٍ، وَصَعِدَ مَعَ السَّيِّدِ كروك إلى الدَّوْرِ الثّاني، ثُمَّ وَقَفا أَمامَ بابٍ داكِنٍ وَقَرَعا البابَ مَرَّتَيْنِ.

وَلَمّا لَمْ يَسْمَعا جَوابًا، دَفَعَ المُحامي البابَ فَوَجَدَ نَفْسَهُ داخِلَ غُرْفَةٍ مُظْلِمَةٍ عَفِنَةٍ تَفوحُ مِنْها رائِحَةُ الأَفْيونِ الكَريهَةُ.

نَظَرَ تلْكِنغْهورْن إلى السَّريرِ المُقابِلِ لِلْمَوْقِدِ فَرَأَى عَلَيْهِ رَجُلًا، وَصاحَ بِهِ، لٰكِنَّهُ لَمْ يُجِبْ. ثُمَّ انْطَفَأَتِ الشَّمْعَةُ لَمّا أَغْلَقَ البابَ، فَبَرَزَتْ في الظَّلامِ عَيْنا الرَّجُلِ الكَئيبَتانِ مَفْتوحَتَيْنِ. وَحاوَلَ إيقاظَهُ، لٰكِنَّهُ كانَ مَيْتًا.

وَقَفَ كروك مَذْهولًا، وَجاءَتِ الآنِسَةُ فلايْت مَذْعورَةً، ثُمَّ اسْتُدْعِيَ طَبيبٌ وَعايَنَهُ فَأَعْلَنَ وَفاتَهُ رَسْمِيًّا.

وَصَلَ السَّيِّدُ سناغْسبي بَعْدَ قَليلٍ، لٰكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُعْطِيَ فِكْرَةً عَنْ شَخْصِيَّتِهِ. ثُمَّ حَضَرَ مُحَقِّقٌ، واسْتَجْوَبَ العَديدَ مِنَ الشُّهودِ لَمْ تُلْقِ إفاداتُهُمْ أَيَّ ضَوْءٍ عَلى هُوِيَّةِ الفَقيدِ. وَحَتّى الصَّبِيُّ المِسْكينُ جو، الّذي يَعْمَلُ كَنّاسًا، لَمْ يَعْرِفْ عَنْهُ سِوى أَنَّهُ كانَ - مِثْلَهُ - إنْسانًا وَحيدًا، وَأَنَّهُ كانَ يُحَيِّيهِ دائِمًا بِلُطْفٍ.



ومَعَ أنَّ جو كانَ فَتًى بائِسًا جاهِلًا، إلّا أَنَّهُ ذَهَبَ وَحيدًا إلى المَقْبَرةِ المُوحِشَةِ حَيْثُ دُفِنَ ذٰلِكَ الرَّجُلُ المَجْهولُ، وأَخَذَ مِكْنَسَتَهُ وشَرَعَ يَكْنُسُ مَدْخَلَ المَقْبَرَةِ وهُوَ يُرَدِّدُ: «لَقَدْ كانَ لَطيفًا مَعي».

لَمّا عادَ الأُسْتاذُ تلْكِنغْهورْن إلى «تشِسْني وُلْد» أَخْبَرَ السِّير ليسْتِر ديدْلوك وزَوْجَتَهُ القِصَّةَ كُلَّها. ولَمْ يَفْهَمِ السِّير ليسْتِر سَبَبَ اهْتِمامِ اللّيدي ديدْلوك بِقِصَّةِ هٰذا البائِسِ، وطَلَبَ إقْفالَ المَوْضوعِ لِأَنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِأُناسٍ ذَوي مَكانَةٍ اجْتِماعِيَّةٍ وَضيعَةٍ.

كُنّا دائِمًا نَتَحَدَّثُ حَوْلَ مُسْتَقْبَلِ ريتْشارْد ونَوْعِ العَمَلِ الّذي يَنْوي امْتِهانَهُ في المُسْتَقْبَلِ، إلى أنْ جاءَ يَوْمٌ قَرَّرَ فيهِ أنَّهُ يَوَدُّ أنْ يُصْبِحَ طَبيبًا .

ولَمّا حَصَلَ وَلِيُّ أَمْري عَلى إذْنٍ مِنَ القاضي، ذَهَبْنا أنا وآدا وريتْشارْد والسَّيِّدُ جارنْدايْس إلى لنْدن، لِوَضْعِ ريتْشارْد تَحْتَ رِعايَةِ وإشْرافِ الدُّكْتورِ بايْهَم بادْجر .

أَمْضَيْنا في لنْدن بِضْعَةَ أسابيعَ، زُرْنا خِلالَها كُلَّ مَعالِمِها، وذَهَبْنا إلى أَهَمِّ مَسارِحِها . كانَتْ فَتْرَةً مُمْتِعَةً بَهيجَةً مَعَ أَنَّني اضْطُرِرْتُ إلى تَحَمُّلِ وُجودِ السَّيِّدِ غوبي الّذي رافَقَنا إلى المَسْرَحِ عِدَّةَ مَرّاتٍ، ولَمْ أُعَبِّرْ عَنِ انْزِعاجي لِأَنّي لَمْ أُرِدْ أَنْ أُنَغِّصَ عَلى الآخَرينَ سَعادَتَهُم .

لاحَظْتُ تَنامِيَ المَحَبَّةِ المُتَبادَلَةِ بَيْنَ آدا وريتْشارْد، لِذٰلِكَ كانَت آدا تَمُرُّ في

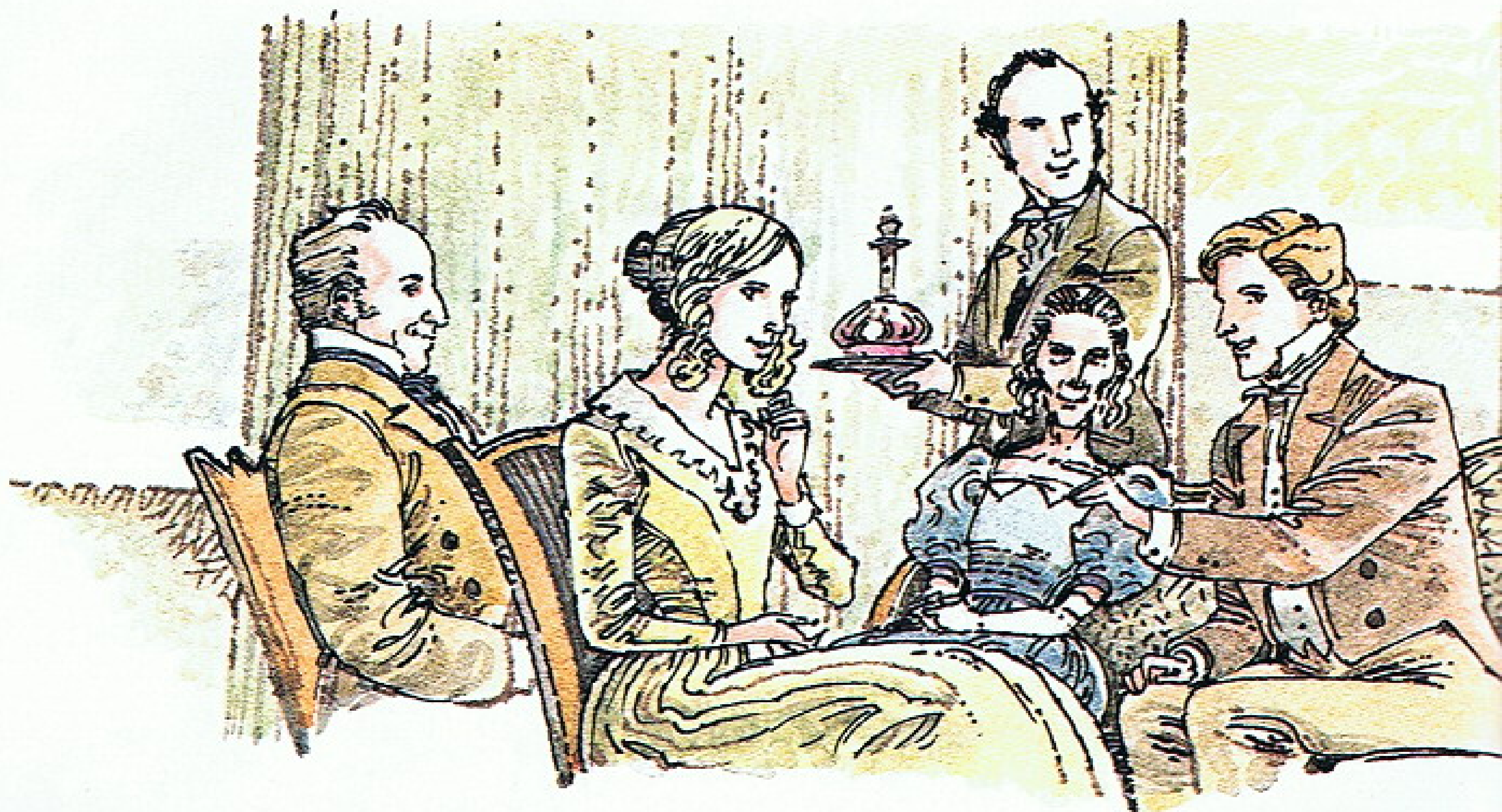


فَترات ِ صَمْت ٍ حَزينَةٍ لَمّا أَخذَ مَوْعِدُ عَوْدَتِنا إلى «بليك هاوْس» يَقْتَرِبُ. ولَمْ أُفاجَأْ عِنْدَما هَمَسَتْ آدا السِّرَّ في أُذُني، وهُوَ أَنَّ ريتْشارْد يُحِبُّها كَثيرًا وأَنَّها تُبادِلُهُ هٰذا الحُبَّ مِنْ كُلِّ قَلْبِها. فَأَخْبَرْتُها أَنَّني قَدْ لاحَظْتُ ذٰلِكَ، ولا شَكَّ في أَنَّ السَّيِّدَ جارنْدايْس قَدْ لاحَظَهُ أَيْضًا.

كانَ العَشاءُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ عَشاءً عائِلِيًّا حَميمًا جَمَعَنا كُلَّنا. وكانَ مَعَنا شَخْصٌ آخَرُ يَعْمَلُ طَبيبًا. ولَمّا سَأَلَتْني آدا عَنِ انْطِباعي عَنْهُ قُلْتُ لَها: «إِنَّني أَراهُ إِنْسانًا مُتَّزِنًا، حَسَنَ المَظْهَرِ والسُّلوكِ.»

المَرْأَة الغامِضَة

كانَتِ اللَّيدي ديدْلوك كَثيرَةَ التَّنَقُّلِ، فَبِالأَمْسِ كانَتْ في «تشِسْني وُلْد»، أَمّا اليَوْمَ فَهِيَ في بَيْتِها في المَدينَةِ، ومَنْ يَدْري فَقَدْ تَذْهَبُ غَدًا إلى خارِجِ البِلادِ. لَقَدِ انْتَقَلَتِ اليَوْمَ فَجْأَةً إلى المَدينَةِ بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ زَوْجَها السِّير ليسْتِر طَريحُ الفِراشِ لِأَنَّ قَدَمَيْهِ لَمْ تَقْوَيا عَلى الوُقوفِ بِسَبَبِ آلامِ داءِ المَفاصِلِ.



لٰكِنْ ما هِيَ العَلاقَةُ الّتي تَرْبُطُ بَيْنَ «تشِسْني وُلْد» في لِنْكولنْشِر والبَيْتِ في لَنْدن ومَكانِ إقامَةِ جو ذٰلِكَ الكَنّاسِ البائِسِ.

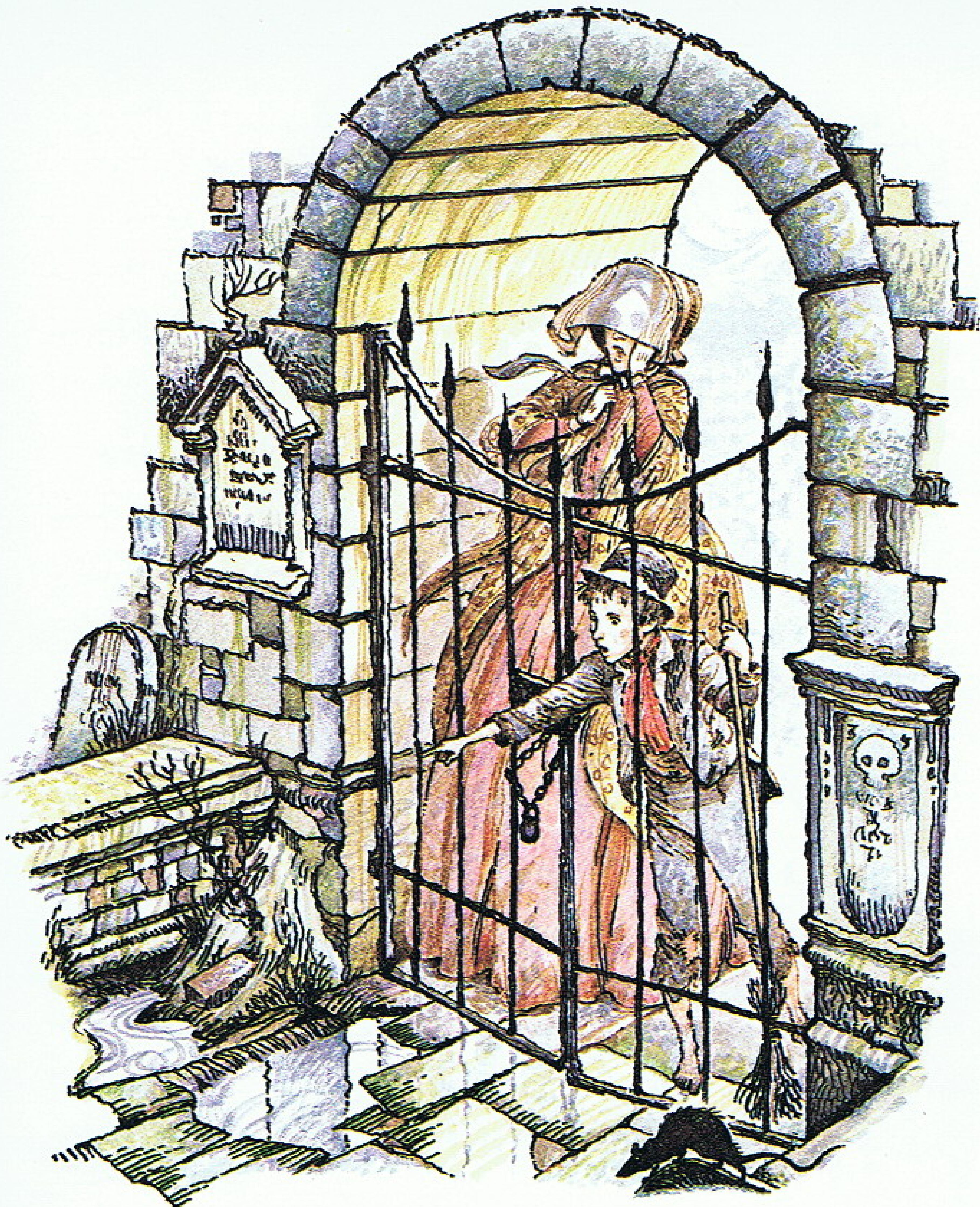
كانَ جو يَكْنُسُ طَريقَهُ سَحابَةَ يَوْمِهِ غَيْرَ عالِمٍ بِهٰذِهِ العَلاقَةِ، إذا كانَتْ مَوْجودَةً أَصْلًا. وجو هٰذا يَعيشُ في حَيٍّ خَرِبٍ مِنْ أَحْياءِ المَدينَةِ. إنَّهُ زُقاقٌ أَسْوَدُ تَكْتَظُّ عَلى جانِبَيْهِ بُيوتٌ حَقيرَةٌ تَخْتَرِقُها مِياهُ الأَمْطارِ ويُعَشِّشُ فيها الجوعُ والمَرَضُ.

كانَ جو عَصْرَ ذٰلِكَ اليَوْمِ يَجُرُّ نَفْسَهُ وَراءَ مِكْنَسَتِهِ في ذٰلِكَ الشّارِعِ المُكْفَهِرِّ، عِنْدَما اقْتَرَبَتْ مِنْهُ امْرَأَةٌ. كانَ وَجْهُها مُغَطًّى بِنِقابٍ، وكانَتْ تَرْتَدي ثَوْبًا بَسيطًا كَالّذي تَرْتَديهِ الخادِماتُ، لٰكِنْ طَريقَةُ مِشْيَتِها كانَتْ أَقْرَبَ إلى شُموخِ وكِبْرِياءِ السَّيِّداتِ النَّبيلاتِ. نادَتْهُ وسَأَلَتْهُ عَمّا إذا كانَ هُوَ الصَّبِيَّ الّذي اسْتَجْوَبَهُ المُحَقِّقُ.

فَأَجابَها جو بِسُؤالٍ: «هَلْ تَقْصِدينَ التَّحْقيقَ حَوْلَ الرَّجُلِ الّذي ماتَ؟» فَقالَتْ: «أَجَلْ أَجَلْ. أَخْفِضْ صَوْتَكَ. هَلْ يُمْكِنُكَ أَنْ تَدُلَّني عَلى كُلِّ الأَمْكِنَةِ المُتَعَلِّقَةِ بِقِصَّةِ هٰذا الرَّجُلِ؟ حَيْثُ كانَ يَعْمَلُ، وحَيْثُ ماتَ، وحَيْثُ دُفِنَ. هَلْ تَعْرِفُ أَيْنَ دُفِنَ؟»

وبِما أَنَّ جو كانَ يَعْرِفُ هٰذِهِ الأَمْكِنَةَ، فَقَدْ قادَ المَرْأَةَ إلى مَكْتَبِ السَّيِّدِ سناغْسبي، وإلى مَخْزَنِ كروك لِلْوَثائِقِ والزُّجاجِ، ثُمَّ إلى المَقْبَرَةِ.

وَقَفَ عِنْدَ البَوّابَةِ وقالَ لَها: «قَبْرُهُ هُناكَ، أَتَرَيْنَهُ؟ فَوْقَ كُومَةِ العِظامِ تِلْكَ.. لَقَدِ اضْطَرّوا إلى الوُقوفِ عَلَيْها لإيصالِهِ... هَلْ تَرَيْنَ ذٰلِكَ الجُرَذَ؟ لَقَدْ هَرَبَ!» فَعَلَّقَتْ قائِلَةً: «يا لَلْهَوْلِ! إنَّ هٰذا المَكانَ لا يَليقُ بِحُرْمَةِ المَوْتى». تَعَجَّبَ جو مِنْ كَلامِ المَرْأَةِ الّتي دَنَتْ مِنْهُ، ونَزَعَتْ قُفّازَها لِتَأْخُذَ مِنْ حَقيبَتِها



بَعْضَ القِطَعِ النَّقْدِيَّةِ، فَلاحَظَ نُعومَةَ يَدِها وبَياضَها ولَمَعانَ الخَواتِمِ في أَصابِعِها. أَعْطَتْهُ النُّقودَ وطَلَبَتْ مِنْهُ أَنْ يُشيرَ إلى المَكانِ ثانِيَةً. فَلَمّا فَعَلَ ذٰلِكَ واسْتَدارَ لَمْ يَجِدْ لَها أَثَرًا!

كانَتْ حَياتي أَنا وآدا في «بليك هاوْس» هانِئَةً. وكُنّا نَتَلَقّى الرَّسائِلَ بِاسْتِمْرارٍ مِنْ ريتْشارْد، وكانَتْ آدا تُسَطِّرُ لَهُ رِسالَةً كُلَّ يَوْم. لٰكِنْ وَلِيُّ أَمْري تَلَقّى، صَباحَ أَحَدِ الأَيّامِ، رِسالَةً مِنَ الدُّكتورِ بادْجر، أَخْبَرَهُ فيها أَنَّ ريتْشارْد لَمْ يَكُنْ سَعيدًا بِدِراسَةِ مِهْنَةِ الطِّبِّ.

تَوَجَّهْنا إلى لَنْدن، في اليَوْمِ نَفْسِهِ. وقَدْ تَأَكَّدَ لَنا الأَمْرُ، إذْ أَعْلَنَ ريتْشارْد أَنَّهُ يُفَضِّلُ دِراسَةَ القانونِ. ومَعَ أَنَّ وَلِيَّ أَمْري حَزِنَ لِهٰذا التَّقَلُّبِ، إلّا أَنَّهُ واجَهَ ريتْشارْد بِتَفَهُّمٍ ومَحَبَّةٍ.

لَمْ أَنَمْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ. ولَمّا نَزَلْتُ إلى غُرْفَةِ المَكْتَبِ لِأُحْضِرَ شَيْئًا كُنْتُ قَدْ نَسيتُهُ هُناكَ، فُوجِئْتُ بِوَلِيِّ أَمْري جالِسًا وَحيدًا، وكانَ غارِقًا في التَّأَمُّلِ. حاوَلْتُ التَّخْفيفَ مِنْ شِدَّةِ قَلَقِهِ على مَصيرِ ريتْشارْد. وقَدْ فاجَأَني إذْ أَعْلَنَ أَنَّهُ كانَ يُفَكِّرُ بِأَمْري وأَنَّهُ قَرَّرَ أَنْ يُخْبِرَني ما يَعْرِفُهُ عَنْ ماضِيَّ:

ذَكَرَ لي أَنَّهُ كانَ، قَبْلَ ذٰلِكَ بِتِسْعِ سَنَواتٍ، قَدْ تَلَقّى رِسالَةً أُخْبِرَ فيها بِأَنَّ هُناكَ فَتاةً يَتيمَةً في الثّانِيَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِها سَتُتْرَكُ وَحيدَةً بَعْدَ وَفاةِ كاتِبَةِ الرِّسالَةِ. وطَلَبَتْ مِنْهُ التَّكَرُّمَ بِإكْمالِ المُهِمَّةِ الّتي كانَتْ تَضْطَلِعُ بِها هِيَ. كانَ هٰذا كُلَّ ما يَعْرِفُهُ عَنّي. ولَمّا أَخْبَرْتُهُ عَنْ تِلْكَ الكَلِماتِ القاسِيَةِ الّتي قيلَتْ لي يَوْمَ عيدِ ميلادي عِنْدَما كُنْتُ طِفْلَةً، لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُفَسِّرَ مَعْنى ذٰلِكَ القَوْلِ وحَقيقَتَهُ. ثُمَّ أَخَذْتُ يَدَهُ وقَبَّلْتُها، وعَبَّرْتُ عَنْ شُكْري العَميقِ لِلّٰهِ تَعالى ولِعِنايَتِهِ الّتي أَوْصَلَتْني إلى رِعايَةِ رَجُلٍ نَبيلٍ مِثْلِهِ.

جاءَنا، في اليَوْمِ التّالي، زائِرٌ هُوَ الطَّبيبُ نَفْسُهُ الّذي شارَكَنا في ذٰلِكَ

العَشاءِ العائِلِيِّ الحَميمِ قَبْلَ بِضْعَةِ أَشْهُرٍ. إِنَّهُ الدُّكْتورُ وُدْكورْت.

أَخْبَرَنا الدُّكْتورُ وُدْكورْت أَنَّهُ كانَ سَيُسافِرُ في رِحْلَةٍ طَويلَةٍ جِدًّا لِأَنَّهُ سَيَعْمَلُ طَبيبًا لِسَفينَةٍ. وقَدْ أَكْبَرْنا إِقْدامَهُ لِأَنَّ ذٰلِكَ العَمَلَ مُضْنٍ.

شَغَلْتُ نَفْسي طَوالَ اليَوْمِ بِالعَمَلِ في أَرْجاءِ المَنْزِلِ. وفي اللَّيْلِ جاءَتْ آدا إلى غُرْفَتي ووَضَعَتْ في يَدي باقَةَ أَزْهارٍ صَغيرَةً، وقالَتْ مُبْتَسِمَةً: «إِنَّ أَحَدَهُمْ قَدْ تَرَكَها لَكِ!».

قِصَّةُ إِسْتر – ٧: تشِسْني وُلْد

بَعْدَ أَنْ تَمَّ اسْتِقْرارُ ريتْشارْد في مِهْنَتِهِ الجَديدَةِ، وصَبَّ جَهْدَهُ عَلى حَلِّ أَلْغازِ قَضِيَّةِ جارنْدايْس المُضْنِيَةِ، غادَرْنا لنْدن، وتَوَجَّهْنا أَنا وآدا مَعَ وَلِيِّ أَمْري إلى لِنْكولنْشِر لِلإِقامَةِ عِنْدَ صَديقٍ حَميمٍ لَهُ هو السَّيِّدُ بُويْثورْن.



اِسْتَقْبَلَنا السَّيِّدُ بُويثورْن عِنْدَ وُصولِنا القَرْيَةَ، وقادَنا إلى مَنْزِلِهِ. وفي الطَّريقِ دَلَّنا على «تشِسْني وُلْد» ذٰلِكَ البَيْتِ الجميلِ حَيْثُ يُقيمُ السِّير واللّيدي ديدْلوك.

صَباحَ يَوْمِ الأَحَدِ ذَهَبْنا إلى الكَنيسَةِ. وقَبْلَ بَدْءِ الصَّلاةِ سُمِعَتْ أَصْواتٌ مِنْ عِنْدِ المَدْخَلِ لَمّا وَصَلَ السِّير واللّيدي ديدْلوك، فَوَقَفْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهِما.

إِنَّني لَنْ أَنْسى، ما حَيِيتُ، دَقّاتِ قَلْبي المُتَلاحِقَةَ إِذْ وَقَعَتْ عَيْنايَ على عَيْنَيْ تِلْكَ السَّيِّدَةِ الجَذّابَةِ، فَأَحْسَسْتُ أَنَّهُما تَنْبِضانِ حَياةً وتَأْسِرانِ عَيْنَيَّ.

لَمْ أَكُنْ قَدْ رَأَيْتُ اللّيدي ديدْلوك سابِقًا، ومَعَ ذٰلِكَ بَدا وَجْهُها مَأْلوفًا. ومِنْ دونِ أَنْ أَجِدَ تَفْسيرًا واضِحًا خِلْتُ أَنَّ ذٰلِكَ الوَجْهَ أَشْبَهُ بِمِرْآةٍ مُحَطَّمَةٍ انْعَكَسَتْ أَمامي كِسَرًا مِنْ ذِكْرَياتٍ قَديمَةٍ، فَأَثارَ المَوْقِفُ اضْطِرابي. لٰكِنْ - لِحُسْنِ حَظّي - لَمْ يُلاحِظْ أَحَدٌ ذٰلِكَ. ولَمْ أَرَ اللّيدي ديدْلوك، بَعْدَ ذٰلِكَ، حَتّى يَوْمِ السَّبْتِ التّالي:

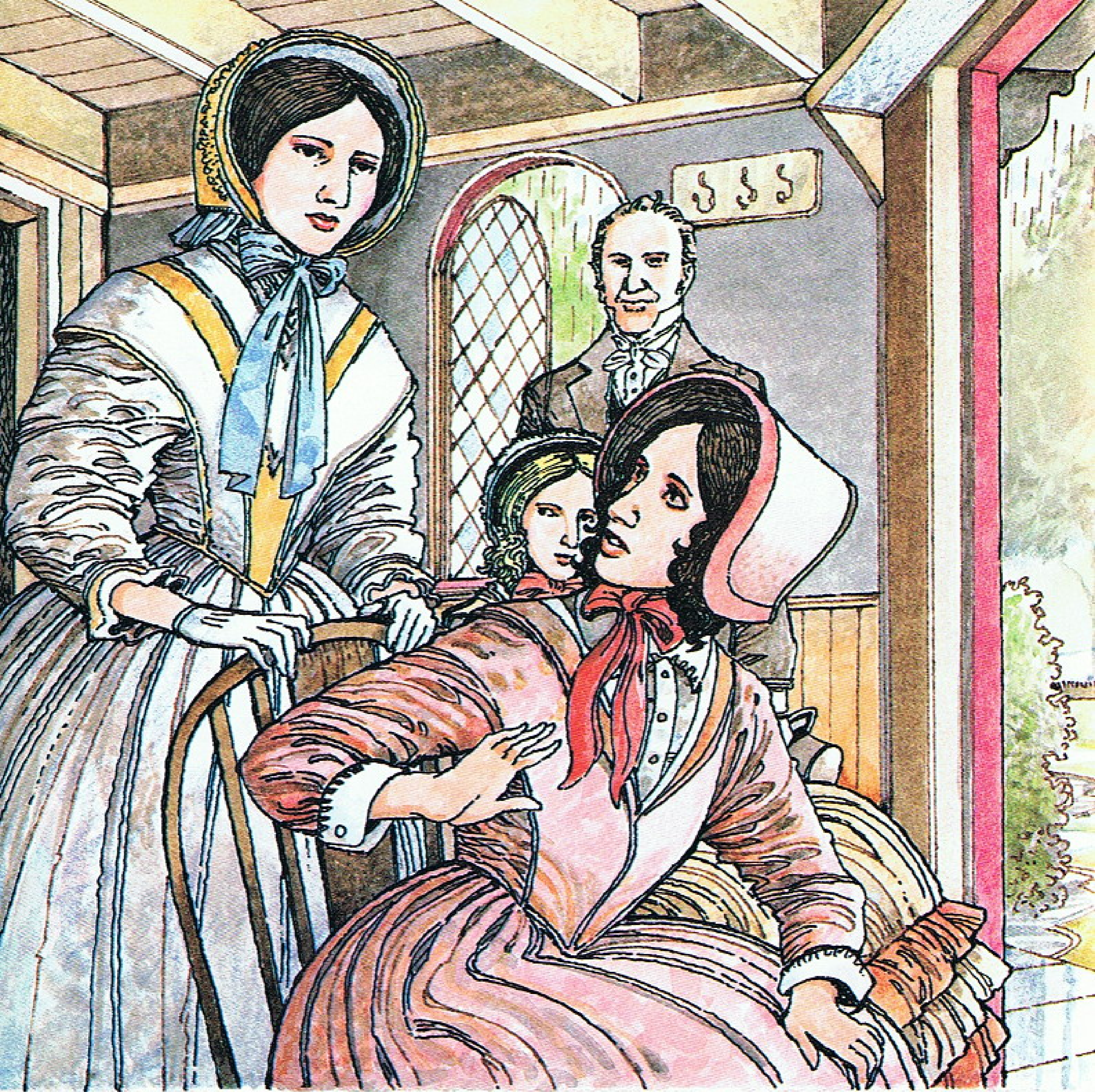
كُنّا نَتَمَشّى أَنا وآدا مَعَ وَلِيِّ أَمْري، فَفاجَأَتْنا عاصِفَةٌ ماطِرَةٌ، فَالْتَجَأْنا إلى كوخِ الحارِسِ قُرْبَ غابَةِ تشِسْني وُلْد، وجَلَسْنا هُناكَ قُرْبَ البابِ.

- أَلَيْسَ المَكانُ مَكْشوفًا ومُعَرَّضًا لِلمَطَرِ؟

- كَلّا يا عَزيزَتي إِسْتر.

كانَ هٰذا جوابَ آدا. لٰكِنّي لَمْ أَكُنْ أَنا مَنْ طَرَحَ السُّؤالَ. وقَدِ ازْدادَتْ دَقّاتُ قَلْبي عِنْدَما اسْتَدَرْتُ ورَأَيْتُ اللّيدي ديدْلوك وَرائي وقَدْ وَضَعَتْ يَدَها على مَقْعَدي. نَظَرْتُ إِلَيْها وبادَلَتْني النَّظْرَةَ، ثُمَّ اتَّجَهَتْ نَحْوَ وَلِيِّ أَمْري، وأَخَذا يَتَحَدَّثانِ، وسَمِعْتُ اللّيدي ديدْلوك تُذَكِّرُهُ بِأُخْتِها المُتَوَفّاةِ.

وفيما جَلَسْنا هُناكَ نُراقِبُ المَطَرَ المُنْهَمِرَ بِغَزارَةٍ اسْتَعَدْتُ رَباطَةَ جَأْشي، ثُمَّ لاحَظْتُ أَنَّ عَرَبَةً تَدْنو مِنَ الكوخِ. لَمّا تَوَقَّفَتْ تَرَجَّلَتْ مِنْها شابَّةٌ جَميلَةٌ وامْرَأَةٌ



فَرَنْسِيَّةٌ قاسِيَةُ المَلامِحِ والنَّظَراتِ.

لَقَدْ جاءَتا اسْتِجابَةً لِطَلَبِ اللّيدي ديدْلوك وأَحْضَرَتا لَها شالًا. بَدا على المَرْأَةِ الفَرَنْسِيَّةِ الانْزِعاجُ عِنْدَما أَخَذَتِ اللّيدي ديدْلوك الشّالَ مِنَ الصَّبِيَّةِ وقالَتْ لَها مُبْتَسِمَةً: «شُكْرًا يا روزا.» ثُمَّ اسْتَقَلَّتِ السَّيِّدَةُ العَرَبَةَ مَعَ روزا.

كانَ اسْمُ الفَرَنْسِيَّةِ أورْتانْس، كَما أَخْبَرَتْنا زَوْجَةُ الحارِسِ. وقَدْ فُوجِئْنا عِنْدَما رَأَيْنا الآنِسَةَ أورْتانْس الغاضِبَةَ تَخْلَعُ حِذاءَها وتَلْحَقُ بِالعَرَبَةِ سَيْرًا، ورَأْسُها مَرْفوعٌ.

سَأَلَ وَلِيُّ أَمْري: «لِماذا تَفْعَلُ ذٰلِكَ؟» فَجاءَ جَوابُ زَوْجَةِ الحارِسِ: «أَعْتَقِدُ أَنَّها تَقومُ بِذٰلِكَ لِتُبَرِّدَ الدَّمَ الّذي يَغْلي في عُروقِها الآنَ!».

قِصَّة غَريبَة

لَدى السَّيِّدِ سناغْسبي مَعْلوماتٌ يُريدُ أَنْ يَنْقُلَها لِلْمُحامي الأُسْتاذِ تلْكِنغْهورْن، وقَدْ قَدَّرَ أَنَّ المُحامِيَ سَيَهْتَمُّ بِها لأَنَّها تَتَعَلَّقُ بِمَوْضوعٍ يُتابِعُهُ، وهُوَ مَقْتَلُ كاتِبِ الشُّؤونِ القانونِيَّةِ.

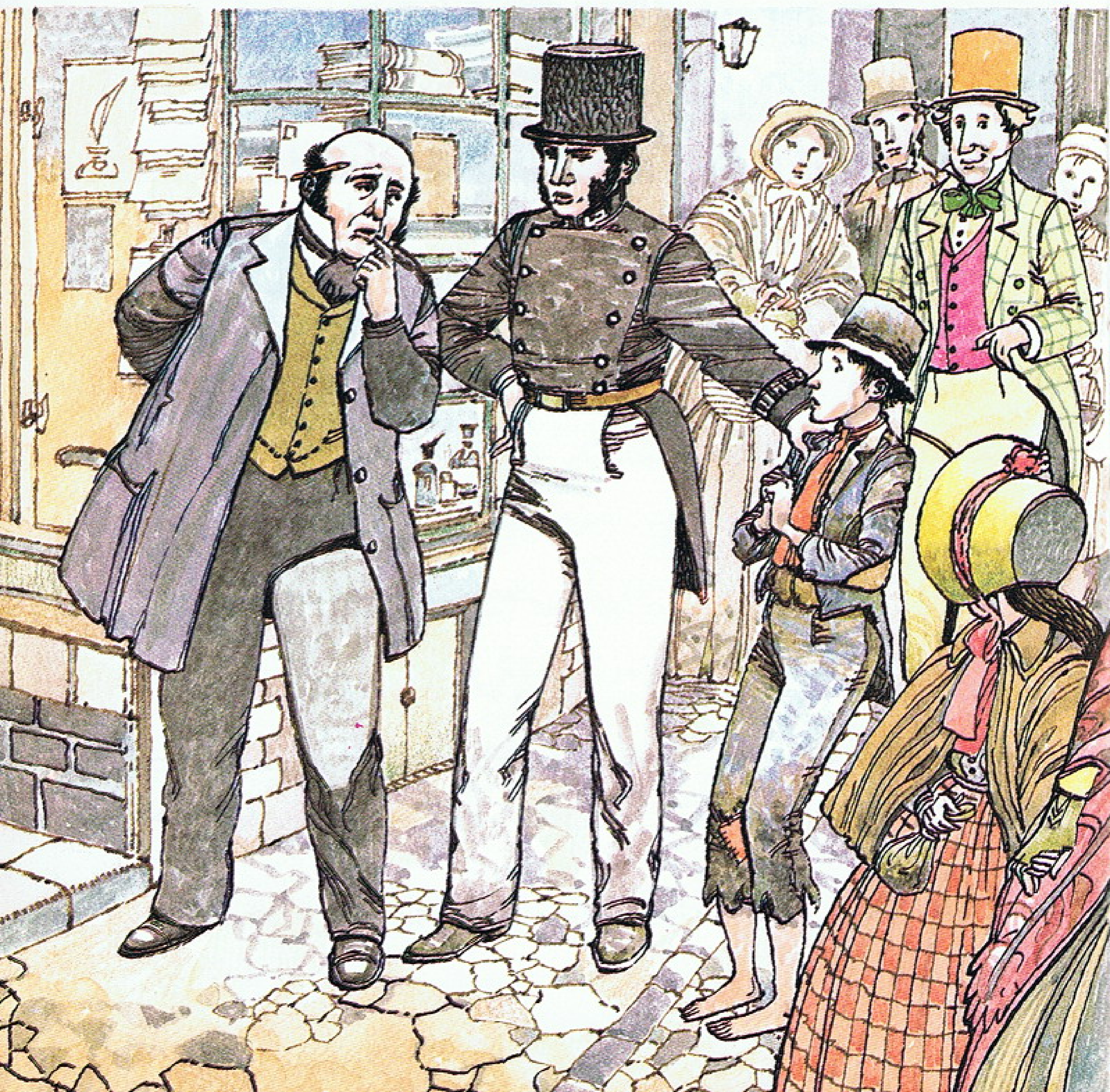
كانَ السَّيِّدُ سناغْسبي يَتَناوَلُ الشّايَ عِنْدَما سَمِعَ أَصْواتَ جَلَبَةٍ في الشّارِعِ. خَرَجَ فَرَأى جو البائِسَ بِحِراسَةِ شُرْطِيٍّ أَفادَ بِأَنَّهُ اضْطُرَّ لإلْقاءِ القَبْضِ عَلى جو في شارِعِ هولْبورْن لِأَنَّهُ وَجَدَهُ مُتَشَرِّدًا. ومِمّا زادَ عِنْدَهُ الشَّكَّ في أَمْرِهِ أَنَّهُ وَجَدَ مَعَهُ بَعْضَ القِطَعِ النَّقْدِيَّةِ.

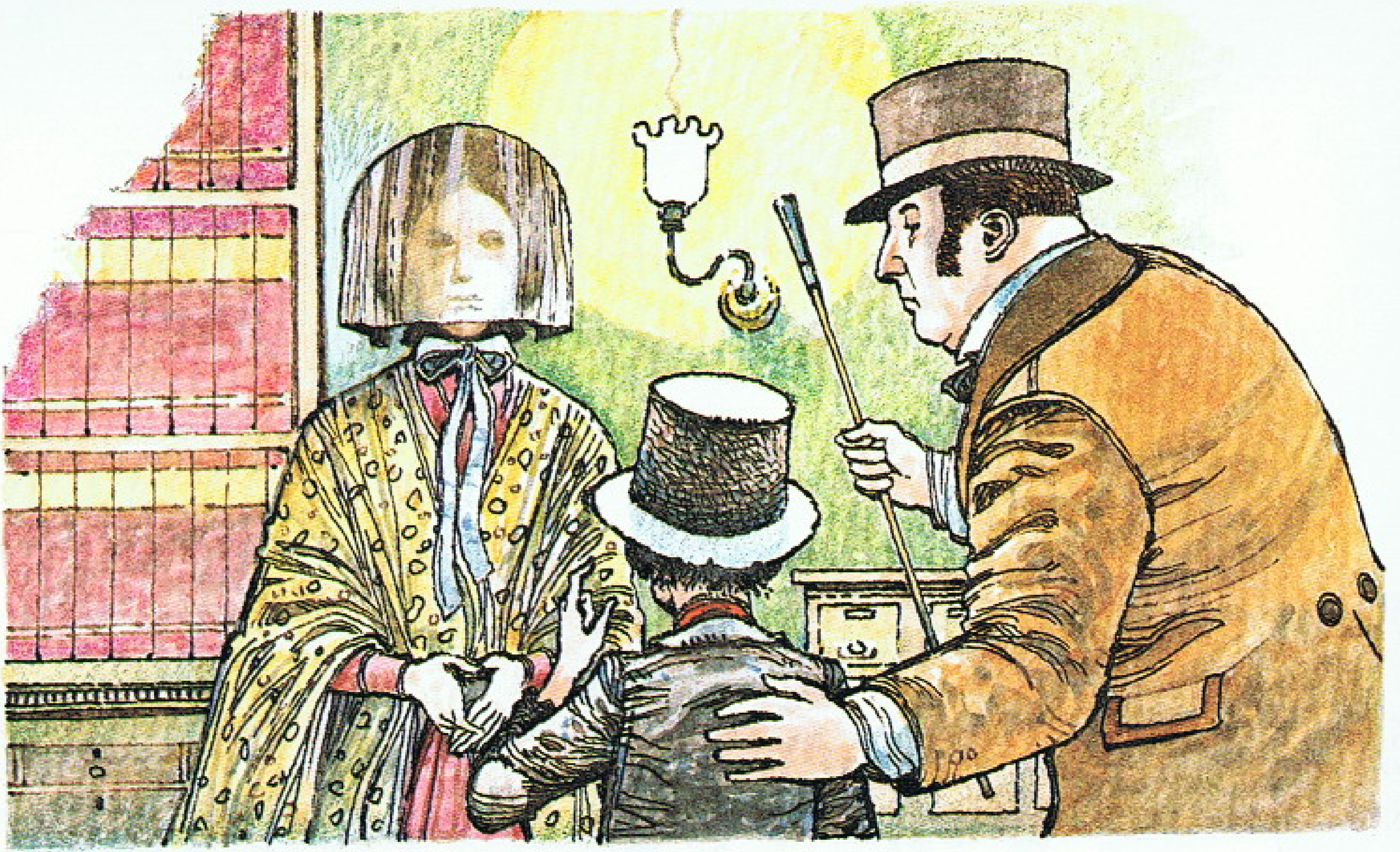
وقَدْ تَذَكَّرَ جو أَنَّ السَّيِّدَ سناغْسبي كانَ لَطيفًا مَعَهُ خِلالَ التَّحْقيقِ ونَقَدَهُ بَعْضَ المالِ، فَأَعْلَنَ أَنَّ السَّيِّدَ سناغْسبي سَيُساعِدُهُ. واتَّفَقَ أَنَّ رَجُلًا يُدْعى السَّيِّدَ غوبي، وهُوَ مُوَظَّفٌ في المَحْكَمَةِ، كانَ مَوْجودًا بَيْنَ جُمْهورِ المُحْتَشِدينَ، فَأَعْلَمَ الشُّرْطِيَّ بِأَنَّهُ يَعْرِفُ السَّيِّدَ سناغْسبي ويُمْكِنُهُ أَنْ يَأْخُذَهُ إِلَيْهِ.

بَعْدَ سَماعِ تِلْكَ التَّفاصيلِ تَعَهَّدَ سناغْسبي لِلشُّرْطِيِّ بِأَنَّهُ يَكْفَلُ جو، فَتَغاضى الشُّرْطِيُّ عَنْ أَمْرِ النُّقودِ الّتي بِحَوْزَةِ جو وتَرَكَ أَمْرَهُ لِلسَّيِّدِ سناغْسبي.

أَثارَ وُجودُ النُّقودِ مَعَ جو الفَقيرِ انْتِباهَ السَّيِّدِ سناغْسبي وسَحَبَ مِنَ الصَّبِيِّ خُيوطَ قِصَّةٍ غَريبَةٍ وَجَدَ مِنَ الضَّروريِّ إِطْلاعَ الأُسْتاذِ تلْكِنغْهورْن عَلَيْها .

بَعْدَ سَماعِ القِصَّةِ طَلَبَ مِنْهُ تلْكِنغْهورْن اصْطِحابَ المُفَتِّشِ السَّيِّدِ باكِت مَعَهُ لِيَتَعَرَّفَ على جو . وقَدْ فَعَلَ السَّيِّدُ سناغْسبي ذٰلِكَ بَعْدَ أَنْ نالَ وَعْدًا بِأَلّا يَتَعَرَّضَ جو لِأَيِّ ضَرَرٍ أَوْ أَذًى .





فِي اليَوْمِ التّالي، مَرَّ السَّيِّدُ باكِت وأَحْضَرَ مَعَهُ جو. أُدْخِلَ جو إلى حَيْثُ كانَ تلْكِنغْهورْن، وقَدْ وَقَفَتْ في وَسَطِ الغُرْفَةِ امْرَأَةٌ غَطَّتْ وَجْهَها بِنِقابٍ.

صاحَ جو فَوْرًا: «إِنَّها هِيَ!»

- مَنْ؟

- السَّيِّدَةُ! إِنَّها السَّيِّدَةُ الّتي أَعْطَتْني النُّقودَ!

ثُمَّ أَضافَ مُحْتارًا مُتَرَدِّدًا: «لا، لا... إِنَّها لَيْسَتْ هِيَ. فَيَدُها لَيْسَتْ بَيْضاءَ، ولَيْسَ في أَصابِعِها خَواتِمُ، وحَتّى صَوْتُها مُخْتَلِفٌ! ولٰكِنْ هٰذا هُوَ النِّقابُ نَفْسُهُ والقُبَّعَةُ نَفْسُها، والثَّوْبُ كَذٰلِكَ... تَمامًا كَتِلْكَ السَّيِّدَةِ!»

صُرِفَ جو بَعْدَ أَنْ أُعْطِيَ ثَلاثَةَ شِلِناتٍ، وكُشِفَ النِّقابُ عَنْ وَجْهِ امْرَأَةٍ فَرَنْسِيَّةٍ قاسِيَةِ المَلامِحِ.

قالَ لَها الأُسْتاذُ تلْكِنغْهورْن: «شُكْرًا يا آنِسَةُ أورْتانْس. لَقَدْ كُنْتِ عَوْنًا كَبيرًا لَنا في مَوْضوعِ رِهانِنا». وأَجابَتْ: «أَرْجو أَنْ تَتَذَكَّرَ، يا سَيِّدي، أَنَّني الآنَ بِلا عَمَلٍ»! فَوَعَدَها تلْكِنغْهورْن خَيْرًا، وانْصَرَفَتْ.

قِصَّةُ إسْتر – ٨: خَيْبَةُ الأَمَلِ

اِنْتَهَتْ إقامَتُنا عِنْدَ السَّيِّدِ بُويْثورْن بَعْدَ سِتَّةِ أَسابيعَ، كانَ ريتْشارْد يَزورُنا خِلالَها مِنْ وَقْتٍ لِآخَرَ. وفي زِيارَتِهِ الثّالِثَةِ أَعْلَنَ أَنَّهُ غَيْرُ راضٍ عَنِ العَمَلِ بِمِهْنَةِ الحُقوقِ، كَما كانَ مِنْ قَبْلُ غَيْرَ راضٍ عَنْ مِهْنَةِ الطِّبِّ.

أُصيبَ وَلِيُّ أَمْري بِخَيْبَةِ أَمَلٍ كَبيرَةٍ هٰذِهِ المَرَّةَ، وأَثارَ حُزْنَ ريتْشارْد عِنْدَما أَخْبَرَهُ – بِكُلِّ وُضوحٍ – أَنَّ عَلَيْهِ الابْتِعادَ عَنِ التَّفْكيرِ بِالزَّواجِ مِنْ آدا قَبْلَ أَنْ يَسْتَقِرَّ عَلى وَظيفَةٍ. فَلَمْ يَجِدْ ريتْشارْد بُدًّا مِنَ الانْصِياعِ لِرَأْيِ وَلِيِّ أَمْري، لٰكِنَّ العَلاقَةَ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ أَصْبَحَتْ، مُنْذُ ذاكَ، فاتِرَةً. وكانَ أَيْضًا مِمّا أَثارَ قَلَقَنا جَميعًا انْشِغالُ ريتْشارْد بِقَضِيَّةِ دَعْوى جارنْدايْس، وخُصوصًا وَلِيَّ أَمْري الَّذي يَعْرِفُ أَنَّ القَضِيَّةَ لا تَزالُ عالِقَةً مُنْذُ أَيّامِ جَدِّهِ الَّذي عانَى مِنْها كَثيرًا، فَسَمّى بَيْتَهُ بِاسْمِ «بليك هاوْس» أَيِ البَيْتِ المُوحِشِ.

لٰكِنَّ ريتْشارْد لَمْ يَتَفَهَّمْ حَقيقَةَ مَخاوِفِنا، وسَرْعانَ ما غادَرَ البَيْتَ مُتَوَجِّهًا إلى ثُكْنَةِ «ديل» حَيْثُ انْخَرَطَ في المَدْرَسَةِ العَسْكَرِيَّةِ.

لَمْ يَكُنْ يَوْمُ وَداعِهِ مُريحًا فَقَدْ رَأَيْتُ عَرَبَةً فيها السَّيِّدُ غوبي ومَعَهُ سَيِّدَةٌ مُتَجَهِّمَةُ الوَجْهِ. إنَّها السَّيِّدَةُ راتْشِل البَغيضَةُ، مُدَبِّرَةُ المَنْزِلِ لَدى عَرّابَتي.

بَعْدَ رُؤْيَتِها، أَخَذْتُ أُسائِلُ نَفْسي: «ماذا يَفْعَلُ السَّيِّدُ غوبي بِصُحْبَتِها؟» ولَمْ يَزُلِ انْزِعاجي إلّا بَعْدَ ذَهابِها.

مُحاوَلات السَّيِّد غوبي

كانَ السِّير ليسْتِر يَقْرَأُ كِتابًا في غُرْفَةِ المَكْتَبَةِ بِمَنْزِلِهِ في لنْدن، عِنْدَما أُعْلِنَ وُصولُ السَّيِّدِ غوبي لِمُقابَلَةِ اللّيدي ديدْلوك. فَتَرَكَ السِّير ليسْتِر الغُرْفَةَ لاِعْتِقادِهِ أَنَّ غوبي هُوَ صانِعُ الأَحْذِيَةِ أَوِ الخَيّاطُ أو...

ويَبْدو، مِنَ الحَديثِ، أَنَّ غوبي كانَ قَدْ راسَلَ اللّيدي ديدْلوك في مُحاوَلَتِهِ لِجَمْعِ مَعْلوماتٍ عَنِ الآنِسَةِ إسْتر سَمِرْسون الّتي لاحَظَ أَنَّها تُشْبِهُ اللّيدي ديدْلوك بِشَكْلٍ لافِتٍ.

ظَلَّتِ اللّيدي ديدْلوك صامِتَةً فيما تابَعَ غوبي حَديثَهُ مُعَبِّرًا عَنْ أَمَلِهِ بِأَنَّهُ إذا اسْتَطاعَ إثْباتَ قَرابَةِ الآنِسَةِ سَمِرْسون بِالعائِلَةِ أَدْخَلَها حَتْمًا في عِدادِ المُسْتَفيدينَ مِنْ قَضِيَّةِ جارنْدايْس. وقَدْ يَدْفَعُها ذٰلِكَ إلى تَغْييرِ رَأْيِها وقَبولِ عَرْضِهِ بِالزَّواجِ مِنْها، وهٰذا ما كانَتْ قَدْ رَفَضَتْهُ سابِقًا.

رَمَقَتْهُ اللّيدي ديدْلوك بِنَظْرَةٍ وهُوَ يُتابِعُ حَديثَهُ. قالَ إنَّ حُسْنَ حَظِّهِ قادَهُ لِلِقاءِ امْرَأَةٍ كانَتْ تَعْمَلُ عِنْدَ الآنِسَةِ بارْباري وتَعْتَني بِالطِّفْلَةِ إسْتر. وقَدْ عَلِمَ السَّيِّدُ غوبي مِنَ السَّيِّدَةِ راتْشِل، مُدَبِّرَةِ المَنْزِلِ، أَنَّ اسْمَ عائِلَةِ إسْتر هو هودُن ولَيْسَ سَمِرْسون. ثُمَّ كَشَفَ أَنَّ اسْمَ كاتِبِ الشُّؤونِ القانونِيَّةِ الّذي تُوُفِّيَ مُؤَخَّرًا هُوَ أَيْضًا السَّيِّدُ هودُن، وأَنَّ هُناكَ مَجْموعَةً مِنَ الرَّسائِلِ قَدْ تَكْشِفُ قِراءَتُها السِّرَّ الغامِضَ.

كانَ السَّيِّدُ غوبي يَأْمُلُ وَضْعَ يَدِهِ عَلى هٰذِهِ الرَّسائِلِ وعَرْضَها عَلى اللّيدي ديدْلوك. لِذٰلِكَ أَرْسَلَ صَديقًا لَهُ، هُوَ السَّيِّدُ ويڤِل، إلى حَيْثُ كانَ السَّيِّدُ هودُن

يُقيمُ لِيُحاوِلَ الحُصولَ عَلَيْها. وقَدْ وَعَدَ اللّيدي ديدْلوك بِأَنَّهُ سَيأْتيها بِالخَبَرِ اليَقينِ بَعْدَ أَيّامٍ مَعْدودَةٍ.

كانَ غوبي، عَلى سَذاجَتِهِ، صادِقًا في مُحاوَلاتِهِ، فَاسْتَأْذَنَ لِلانْصِرافِ إلى مُتابَعَةِ المَوْضوعِ، وانْحَنى أمامَ اللّيدي ديدْلوك تارِكًا إيّاها في أَشَدِّ حالاتِ الحَيْرَةِ والأَسى، فَارْتَمَتْ عَلى رُكْبَتَيْها وأَطْلَقَتْ صَرْخَةً مِنَ القَلْبِ: «آهِ يا ابْنَتي الحَبيبَةَ!»



أَصِلُ الآنَ إلى جُزْءٍ مِنْ قِصَّتي لا أُحِبُّ الإطالَةَ في الحَديثِ عَنْهُ:

مُنْذُ مَوْتِ تِلْكَ الطِّفْلَةِ المِسْكينَةِ، أَخَذْتُ أَتَرَدَّدُ مَعَ آدا على ذٰلِكَ المَنْزِلِ لِمُواساةِ أَهْلِهِ ومُساعَدَتِهِمْ قَدْرَ الإمْكانِ. وقَدْ ذَهَبْتُ يَوْمًا وَحْدي لِأَنَّ آدا لازَمَتِ البَيْتَ نَظَرًا لإصابَتِها بِزُكام. كانَ أَمامَ كُوخٍ جيني وَلَدٌ هَزيلٌ بائِسٌ مُتَمَدِّدٌ عَلى الأَرْضِ، وقَدْ تَراجَعَ لَمّا رَآني وتَمْتَمَ كَلِماتٍ لَمْ أَفْهَمْها.

تَقَدَّمْتُ مِنْهُ بِسُرْعَةٍ وهَمّي الوَحيدُ نَقْلُهُ إلى مَكانٍ دافِئٍ والتَّخْفيفُ مِنْ حِدَّةِ الحُمّى الّتي يُعاني مِنْها، مَعَ عِلْمي أَنَّ مَرَضَهُ شَديدٌ وشِفاءَهُ التّامَّ شِبْهُ مُسْتَحيلٍ.

نَقَلْتُ الصَّبِيَّ المِسْكينَ إلى مَنْزِلِنا ووَضَعْتُهُ في الغُرْفَةِ الدّافِئَةِ المُجاوِرَةِ لِلإسْطَبْلِ. لٰكِنَّهُ في صَباحِ اليَوْمِ التّالي لَمْ يَكُنْ هُناكَ، رُبَّما لِأَنَّهُ اعْتادَ التَّشَرُّدَ وعَدَمَ البَقاءِ في مَكانٍ واحِدٍ مُدَّةً طَويلَةً. وقَدْ تَرَكَ أَثَرًا لا يُمْحى فَفي مَساءِ ذٰلِكَ اليَوْمِ شَعَرْتُ بِأَنَّني مَريضَةٌ.

ذَهَبْتُ إلى غُرْفَتي، واسْتَدْعَيْتُ خادِمَتي، وجَعَلْتُها تَعِدُني، بِكُلِّ إخْلاصٍ، بِعَدَمِ السَّماحِ لِلْعَزيزَةِ آدا بِرُؤْيَتي أَوِ الدُّنُوِّ مِنّي مَهْما كانَ السَّبَبُ. وقَدْ وَعَدَتْني بِتَنْفيذِ ذٰلِكَ وهِيَ غارِقَةٌ في البُكاءِ. ثُمَّ طَلَبْتُ مِنْها أَنْ تَجْلِسَ قُرْبي وتُمْسِكَ يَدي لأَنَّني أَحْسَسْتُ أَنَّ الغُرْفَةَ تَزْدادُ ظُلْمَةً. بَعْدَ ذٰلِكَ لَمْ أَعُدْ أَرى شَيْئًا.

بَقيتُ مَريضَةً طَريحَةَ الفِراشِ عِدَّةَ أَسابيعَ، لَمْ أَرَ فيها سِوى ذِكْرَياتٍ في خاطِري، وكُنْتُ أَسْمَعُ آدا المِسْكينَةَ تَبْكي خارِجَ بابي لَيْلًا نَهارًا، وتَصْرُخُ مُتَّهِمَةً إيّايَ بِالقَسْوَةِ والكَراهِيَةِ، ولٰكِنَّ خادِمَتي وَفَتْ بِوَعْدِها.



أَخَذَتِ العافِيَةُ تَعودُ إِلَيَّ تَدْريجًا. وكانَ وَلِيُّ أَمْري يَزورُني يَوْمِيًّا، وهٰذا ما كانَ يُبَدِّدُ عَنّي الحُزْنَ والوَحْشَةَ. وقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيَّ بِنِعْمَةٍ كُبْرى، إِذْ عادَ إِلَيَّ بَصَري. لٰكِنَّ المَرَضَ تَرَكَ أَثَرَهُ نُدوبًا على وَجْهي.

رُحْتُ أُعَزّي نَفْسي بِإِخْلاصِ وَلِيِّ أَمْري ومُواصَلَتِهِ رِعايَتي، وقَدْ كانَ لِمَحَبَّتِهِ وعَطْفِهِ الفَضْلُ في إِمْدادي بِالشَّجاعَةِ. والحَقيقَةُ هِيَ أَنَّ الجَميعَ عامَلوني بِمَحَبَّةٍ وإِخْلاصٍ. فَقَدْ جاءَتْ جيني مَرّاتٍ عَديدَةً لِتَطْمَئِنَّ إلى تَحَسُّنِ صِحَّتي، وذَكَرَتْ مَرَّةً أَنَّ سَيِّدَةً سَأَلَتْ عَنّي وأَخَذَتْ مِنْديلي كَتَذْكارٍ، فَقَدَّرْتُ أَنْ تكونَ آدا قَدْ أَخَذَتِ المِنْديلَ وأَنَّ بَقِيَّةَ القِصَّةِ مِنْ نَسْجِ خيالِ جيني.

وقَدْ تَسَلَّمْتُ يَوْمًا رِسالَةً مِنَ السَّيِّدِ بُويثورْن يَدْعوني فيها لِقَضاءِ فَتْرَةٍ مِنَ النَّقاهَةِ في مَنْزِلِهِ. فَقَبِلْتُ تِلْكَ الدَّعْوَةَ الكَريمَةَ فَوْرًا.

شُكوك الأُسْتاذ تلْكِنغْهورْن

أُصيبَ السَّيِّدُ غوبي بِخَيْبَةِ أَمَلٍ، إذْ شَبَّ حَريقٌ في مَخْزَنِ كروك كانَ مِنْ نَتائِجِهِ وَفاةُ السَّيِّدِ كروك نَفْسِهِ.

لَمْ يَعُدْ بالإمْكانِ إقْناعُ السَّيِّدِ ويقِل بِالبَقاءِ هُناكَ. وعَلى كُلِّ حالٍ، فَإنَّ أَحَدَ أَقْرِباءِ كروك قَدْ وَرِثَ المَخْزَنَ وعَمِلَ بِمَعونَةِ الأُسْتاذِ تلْكِنغْهورْن عَلى الحُصولِ عَلى كُلِّ المُسْتَنَداتِ والمُمْتَلَكاتِ الشَّخْصِيَّةِ العائِدَةِ لِلْمَرْحومِ.

لِذٰلِكَ لَمْ يَجِدْ غوبي بُدًّا مِنْ زِيارَةِ اللّيدي ديدْلوك. واجَهَها المِسْكينُ وهُوَ مُكْتَئِبٌ، وأَعْلَمَها بِأَنَّ الرَّسائِلَ الّتي كانَ قَدْ حَدَّثَها عَنْها سابِقًا الْتَهَمَتْها النّارُ.

لَمْ تُجِبِ اللّيدي ديدْلوك، وإنَّما رَمَقَتْهُ بِنَظْرَةٍ، ولَمْ يُلاحِظْ، لِخَيْبَتِهِ وارْتِباكِهِ، أَنَّ عَيْنَيْها تَنِمّانِ عَمّا في نَفْسِها مِنْ راحَةٍ واطْمِئْنانٍ.

في تِلْكَ اللَّحْظَةِ دَخَلَ الأُسْتاذُ تلْكِنغْهورْن إلى غُرْفَةِ المَكْتَبَةِ، فَتَقابَلَ وَجْهُهُ ووَجْهُ غوبي وهُوَ يُغادِرُ المَكانَ. نَظَرَ تلْكِنغْهورْن إلى السَّيِّدَةِ نِظْرَةً ذاتَ مَغْزًى، ثُمَّ تَوَجَّهَ إلى سِتارَةِ النّافِذَةِ ورَفَعَها قَليلًا ناظِرًا إلى الخارِجِ مَدْفوعًا بِشَكِّهِ وارْتِيابِهِ، ورَأَى السَّيِّدَ غوبي يَبْتَعِدُ، ثُمَّ أَنْزَلَها.

بَعْدَ قَليلٍ نَزَلَ تلْكِنغْهورْن مَعَ اللّيدي ديدْلوك ورافَقَها حَتّى عَرَبَتِها، وعادَ وهُوَ يَحُكُّ رَأْسَهُ مُتَأَمِّلًا، ثُمَّ قَضى مَساءَ ذٰلِكَ اليَوْمِ مُطْرِقًا مُتَأَمِّلًا.

قِصَّة إسْتر - ١٠ : البَوْح بِالسِّرّ

إنْتَقَلْتُ أَنا وخادِمَتي إلى مَنْزِلِ السَّيِّدِ بُويْثورْن. وبِما أَنَّني كُنْتُ أَنْوي أَنْ أَسْتَرِدَّ المَزيدَ مِنَ العافِيَةِ قَبْلَ أَنْ تَنْضَمَّ إلَيْنا آدا، أَمْضَيْتُ مَعَ خادِمَتي عِدَّةَ أَيّامٍ

أَمْلأُ رِئَتَيَّ بِالهَواءِ النَّقِيِّ، فَكُنّا نَتَمَشَّى في المُروجِ الخَضْراءِ، ونَمُرُّ بِالأَكْواخِ الصَّغيرَةِ المُنْتَشِرَةِ في تِلْكَ المِنْطَقَةِ، أَوْ نَجْلِسُ تَحْتَ الأَشْجارِ في غابَةِ «تشِسْني وُلْد».

كُنْتُ مَرَّةً أَرْتاحُ هُناكَ بَعْدَ نُزْهَةٍ طَويلَةٍ، فَلَمَحْتُ إِنْسانًا آتِيًا مِنْ بَعيدٍ بَيْنَ الأَشْجارِ. ولَمّا أَدْرَكْتُ أَنَّ الآتِيَ هُوَ اللّيدي ديدْلوك فُوجِئْتُ. ولا أَسْتَطيعُ أَنْ أَصِفَ حَقيقَةَ ما أَحْسَسْتُ بِهِ عِنْدَما رَأَيْتُ بِيَدِها مِنْديلي، ذاكَ المِنْديلَ الّذي كُنْتُ قَدْ غَطَّيْتُ بِهِ ابْنَةَ جيني.

تَقَدَّمَتِ اللّيدي ديدْلوك مِنّي وضَمَّتْني إلى صَدْرِها وقَبَّلَتْني، وأَخَذَتْ تَبْكي. ثُمَّ جَثَتْ عَلى رُكْبَتَيْها وقالَتْ: «يا ابْنَتي الحَبيبَةَ! أَنا أُمُّكِ الشَّقِيَّةُ التَّعِسَةُ». عِنْدَئِذٍ فاضَ قَلْبي بِالمَحَبَّةِ نَحْوَها، وحَمِدْتُ اللهَ عَلى التَّغْييرِ الّذي كانَ قَدْ طَرَأَ عَلى وَجْهي مُؤَخَّرًا لِأَنَّهُ أَبْعَدَ مَظْهَرَ الشَّبَهِ بَيْنَنا.



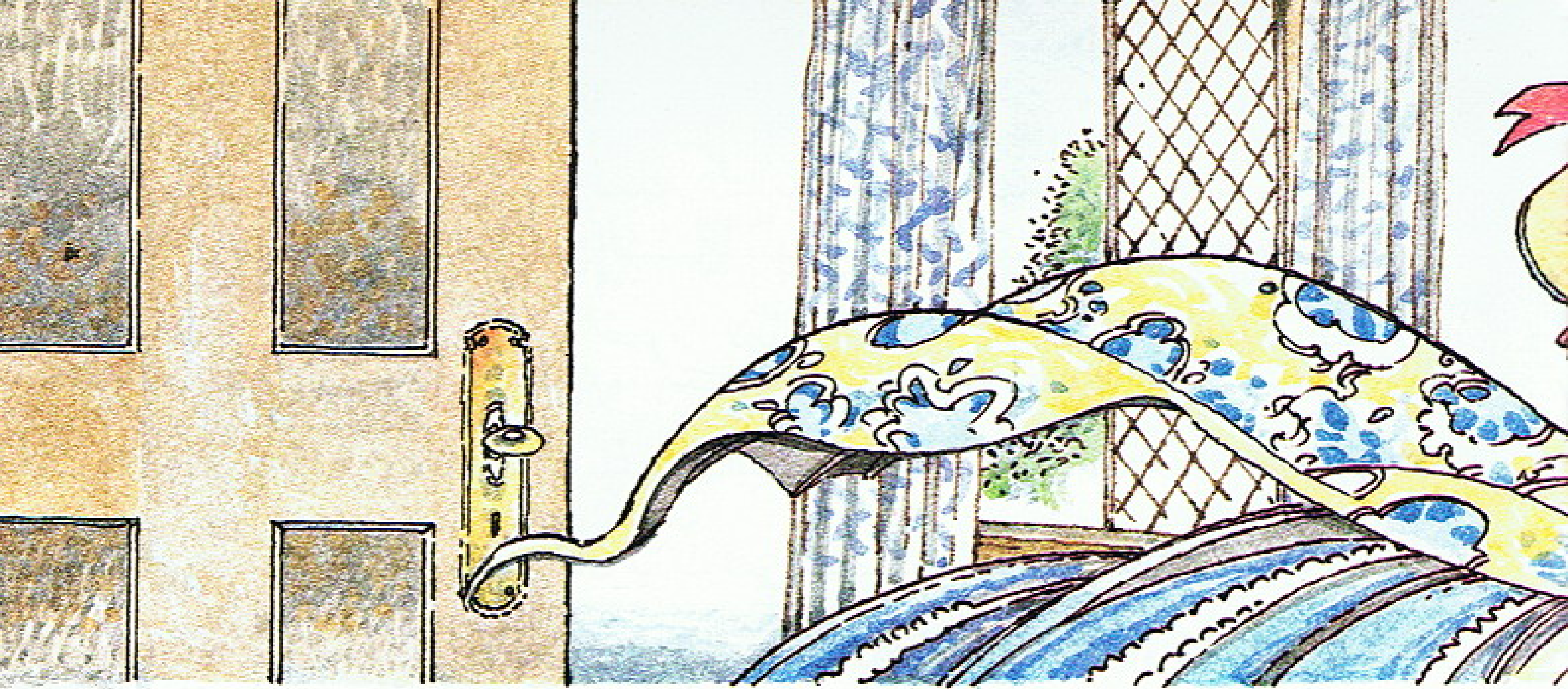


لٰكِنَّ القَلَقَ انْتابَني عِنْدَما أَفْصَحَتْ عَنْ مَخاوِفِها مِنْ أَنْ يَقومَ بِكَشْفِ السِّرِّ الأُسْتاذُ تلْكِنغْهورْن مُحامي زَوْجِها. وما أَحْزَنَني هُوَ أَنَّهُ إذا اتَّصَلَتْ إحْدانا بِالأُخْرى أَوْ تَحادَثْنا مَعًا سَيُكْشَفُ السِّرُّ، مِمّا سَيُؤَدّي إلى إلْحاقِ العارِ بِاسْمِ والِدَتي ومَكانَتِها.

وَضَعَتْ أُمّي رِسالَةً في يَدي وقَبَّلَتْني قُبْلَةَ الوَداعِ وتَوارَتْ بَيْنَ الأَشْجارِ. فَعُدْتُ إلى البَيْتِ مُتَثاقِلَةَ الخُطى كَسيرَةَ الفُؤادِ. ولَمّا أَصْبَحْتُ وَحْدي داخِلَ غُرْفَتي قَرَأْتُ الرِّسالَةَ.

اِكْتَشَفْتُ أَنَّ أُمّي لَمْ تَتَخَلَّ عَنّي طَوْعًا لِأَنَّها - حَتّى فَتْرَةٍ قَريبَةٍ - لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ أَنَّني حَيَّةٌ. لَقَدِ اعْتَقَدَ أَنَّني وُلِدْتُ مَيْتَةً، ولٰكِنْ عِنْدَما ظَهَرَتْ فِيَّ نَسَمَةُ حَياةٍ أَخَذَتْني خالَتي أَغْنِس بارْباري، بِدافِعِ الواجِبِ لا المَحَبَّةِ، ورَبَّتْني بِشَكْلٍ سِرِّيٍّ، وكَتَمَتِ الأَمْرَ عَنْ أُمّي.

أَمْضَيْتُ اليَوْمَ التّالِيَ، وأَنا في غايَةِ الكَآبَةِ لِأَنَّني خَشيْتُ أَنْ يُصيبَ الأَذى



أُمّي بِسَبَبي. ولَمْ تَتَبَدَّدْ سَحابَةُ الحُزْنِ تِلْكَ إلّا بَعْدَ تَسَلُّمي رِسالَتَيْنِ مِنْ وَلِيِّ أَمْري ومِنْ آدا. وعِنْدَما قَدِمَتِ العَزيزَةُ آدا، دَخَلَتْ غُرْفَتي رَأْسًا، فَضَمَّتْني وأَلْصَقَتْ خَدَّها بِوَجْهي المُتَنَدِّبِ، فَغَمَرَني سُرورٌ لا يُوصَفُ.

اِمْتَدَّتْ إقامَتُنا عِنْدَ السَّيِّدِ بُويْثورْن شَهْرًا، قَضَيْتُهُ بَعيدَةً عَنْ إحْراجِ رُؤْيَةِ أُمّي لِأَنَّها عادَتْ إلى لَنْدن.

بَعْدَ بِضْعَةِ أَسابيعَ بِرِفْقَةِ آدا الغالِيَةِ شَعَرْتُ بِتَحَسُّنٍ بالِغٍ، وأَصْبَحْتُ مُتَشَوِّقَةً لِلعَوْدَةِ إلى البَيْتِ. كانَتْ أُمّي قَدْ أَخْبَرَتْني عَنْ تَدَخُّلاتِ السَّيِّدِ غوبي، فَصَمَّمْتُ عَلى أَنْ أُقابِلَهُ في أَوَّلِ فُرْصَةٍ مُمْكِنَةٍ وأَطْلُبَ مِنْهُ التَّخَلّيَ عَنْ مُحاوَلاتِهِ لِتَحْسينِ صُورَتي الاجْتِماعِيَّةِ ولِلتَّقَرُّبِ مِنّي.

حينَ قابَلْتُ السَّيِّدَ غوبي في لَنْدن أَبْلَغْتُهُ طَلَبي هٰذا، فَاسْتَغْرَبَ الأَمْرَ ولَمْ يُصَدِّقْهُ. لٰكِنْ عِنْدَما رَفَعْتُ الخِمارَ عَنْ وَجْهي تَراجَعَ مُرْتَبِكًا واقْتَنَعَ مُسَلِّمًا.

وقَدْ ذَكَّرَني بِرَفْضي لِعَرْضِهِ سابِقًا. لٰكِنَّ ما شَفَى غَليلي هُوَ أَنّي وَجَدْتُهُ مُذْعِنًا خائِبًا، وخُصوصًا وهُوَ يَعِدُني بِعَدَمِ التَّدَخُّلِ في أُموري بَتاتًا.

سَيْطَرَ عَلى البَيْتِ في تشِسْني وُلْد جَوٌّ مِنَ الغَضَبِ والانْزِعاجِ. فَالسِّير ليسْتِر حانِقٌ عَلى النّاسِ عُمومًا لِأَنَّهُمْ عارَضوا الحُكومَةَ، وكادوا يُطيحونَ بِالحِزْبِ الحاكِمِ.

بِالإضافَةِ إلى ذٰلِكَ، كانَ مِنْ دَواعي غَضَبِ السِّير ليسْتِر ما تَناهَى إِلَيْهِ مِنْ أَنَّ السَّيِّدَ راونْسوِل، ابْنَ مُدَبِّرَةِ المَنْزِلِ، أَعْلَنَ عَنْ مَواقِفَ مُعارِضَةٍ لِلسِّير ليسْتِر نَفْسِهِ. وبِما أَنَّ راونْسوِل كانَ مُتَيَّمًا بِالفَتاةِ روزا، وهِيَ خادِمَةُ اللّيدي ديدْلوك، فَقَدْ رَأى السِّير ليسْتِر أَنَّ مِنْ واجِبِهِ إِبْعادَ روزا عَنْ هٰذا الرَّجُلِ الخَطِرِ.

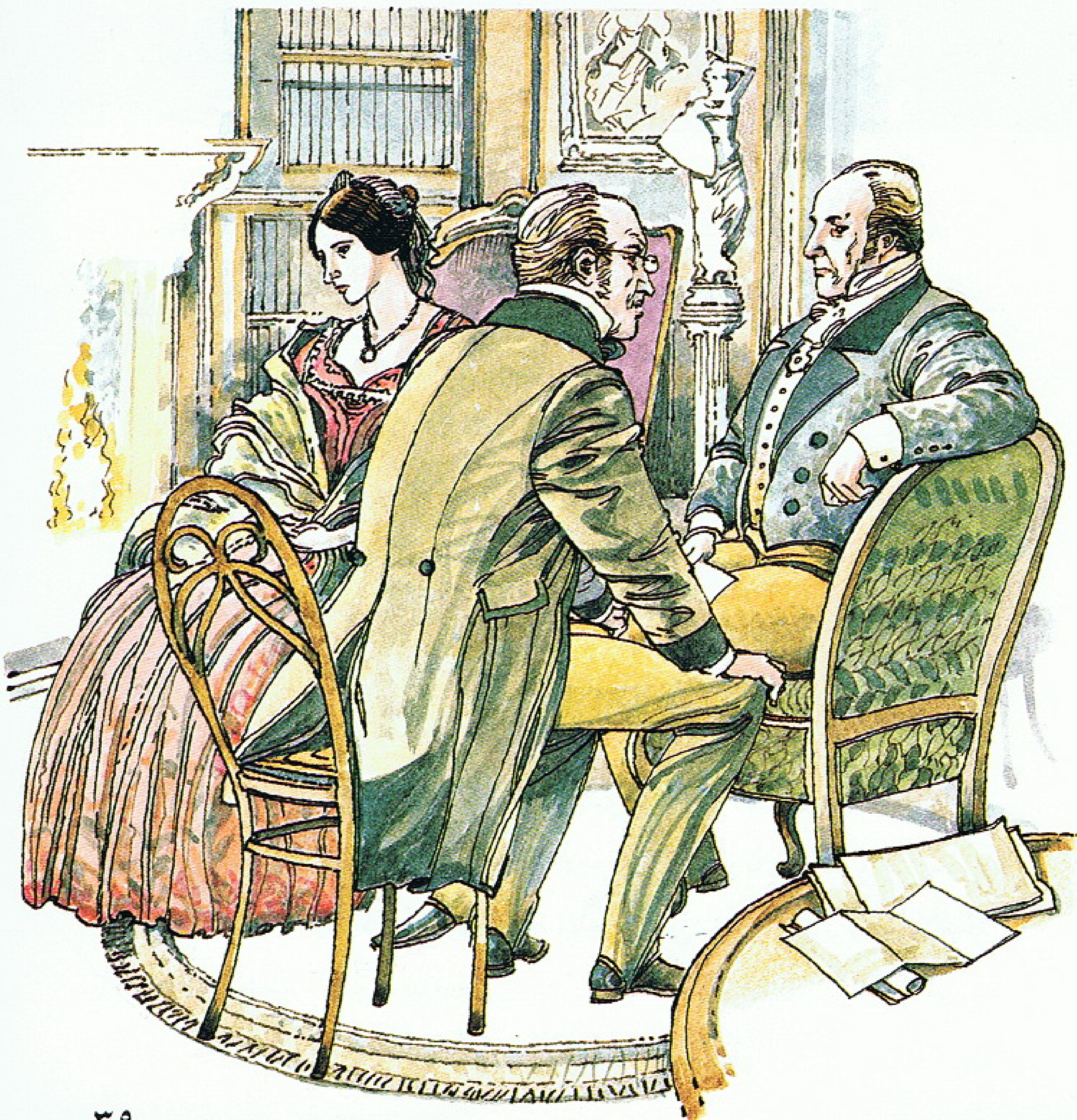
قالَ الأُسْتاذُ تلْكِنغْهورْن: «لٰكِنْ يَجِبُ أَنْ نَتَنَبَّهَ لِأَمْرٍ جَديرٍ بِالمُلاحَظَةِ هُوَ أَنَّ هٰؤُلاءِ النّاسَ مُعْتَزّونَ بِأَنْفُسِهِمْ مُتَمَسِّكونَ بِكَرامَتِهِمْ». فَأَجابَ السِّير ليسْتِر: «إِنَّني أَشُكُّ في ذٰلِكَ!».

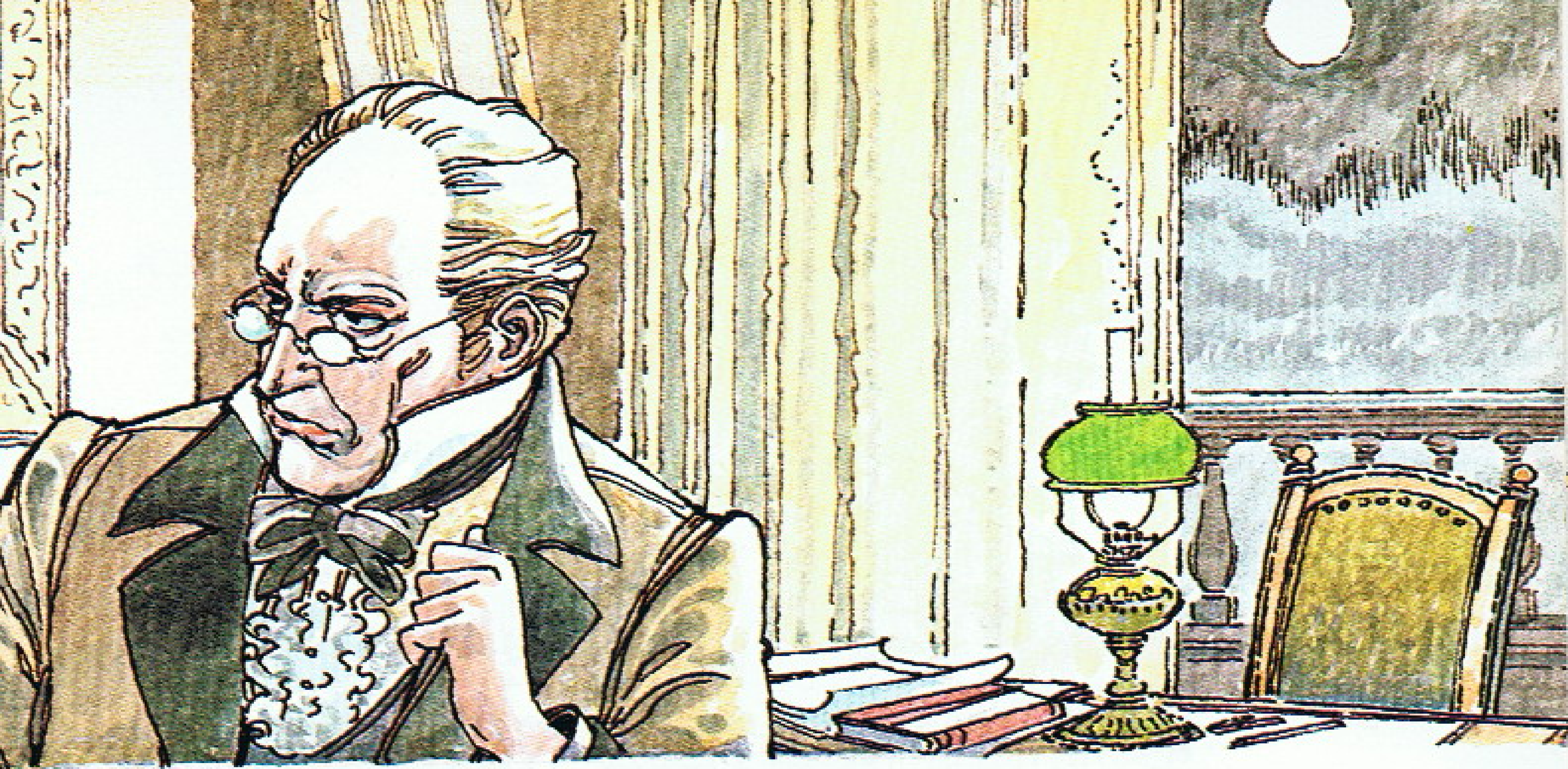
كَرَّرَ تلْكِنغْهورْن رَأْيَهُ وأَضافَ: «لا تَسْتَبْعِدْ، يا سَيِّدي، أَنْ يَتَخَلّى راونْسوِل وكُلُّ عائِلَتِهِ عَنْ روزا بَدَلًا مِنْ أَنْ تَتَخَلّى هِيَ عَنْهُمْ، وخُصوصًا إذا بَقِيَتْ في تشِسْني وُلْد». فَأَبْدى السِّير ليسْتِر اسْتِغْرابَهُ لِرَأْيِ تلْكِنغْهورْن. لٰكِنَّ هٰذا الأَخيرَ اسْتَأْذَنَ اللّيدي ديدْلوك بِسَماعِ قِصَّةٍ واقِعِيَّةٍ تُبَرْهِنُ صِحَّةَ كَلامِهِ.

جَلَسَتِ اللّيدي ديدْلوك ساكِنَةً قُرْبَ المَوْقِدِ، وهِيَ تَسْتَمِعُ إلى تلْكِنغْهورْن يَقولُ: «كانَ لِأَحَدِ أَقْرِباءِ السَّيِّدِ راونْسول ابْنَةٌ لَفَتَتِ انْتِباهَ إِحْدى سَيِّداتِ المُجْتَمَعِ الرّاقي. كانَتْ هٰذِهِ السَّيِّدَةُ المُحْتَرَمَةُ تُخْفي سِرًّا قَديمًا، فَلَقَدْ كانَتْ سابِقًا مَخْطوبَةً لِضابِطٍ شابٍّ في الجَيْشِ. لَمْ يَتَزَوَّجِ الضّابِطُ مِنْ هٰذِهِ السَّيِّدَةِ ولٰكِنَّها حَمَلَتْ مِنْهُ وأَنْجَبَتْ طِفْلَةً. وقَدِ اعْتَبَرَتْ أَنَّ سِرَّها دُفِنَ عِنْدَما سادَ

الاعْتِقادُ أَنَّ الضّابِطَ الشّابَّ قَدْ تُوُفِّيَ. لٰكِنَّ سِلْسِلَةً مِنَ الأَحْداثِ أَدَّتْ إلى اكْتِشافِ الأَمْرِ. وتَفاقَمَتِ المَأْساةُ العائِلِيَّةُ عِنْدَما قامَ قَريبُ راونسوِل بِأَخْذِ ابْنَتِهِ، ورَفَضَ الاعْتِرافَ بِمَكانَةِ الأُمِّ وكَأَنَّها واحِدَةٌ مِنْ عامَّةِ النّاسِ.»

ثُمَّ أُبْدِيَتْ بَعْضُ الآراءِ حَوْلَ هٰذِهِ القِصَّةِ، مِنْ دونِ نِقاشٍ طَويلٍ لِأَنَّ الوَقْتَ كانَ مُتَأَخِّرًا جِدًّا. بَعْدَ ذٰلِكَ انْسَحَبَتِ اللَّيدي ديدْلوك إلى غُرْفَتِها.





وَجْهًا لِوَجْه

لَمْ يَنَمِ الجميعُ بِالرَّغْمِ مِنْ تَقَدُّمِ الوَقْتِ. فَاللّيدي ديدْلوك تَوَجَّهَتْ إلى الطَّبَقَةِ العُلْيا ودَخَلَتْ غُرْفَةَ الأُسْتاذِ تلْكِنغْهورْن وأَغْلَقَتِ البابَ وَراءَها.

كانَتْ تَشْعُرُ بِالغَضَبِ والخَوْفِ والارْتِباكِ عِنْدَما سَأَلَتْهُ عَنْ عَدَدِ الأَشْخاصِ الّذينَ يَعْرِفونَ سِرَّها، واسْتَفْسَرَتْ عَمّا إذا كانَ بِإمْكانِها مُساعَدَةُ روزا قَبْلَ فَواتِ الأَوانِ. لٰكِنَّ السَّيِّدَ تلْكِنغْهورْن لَمْ يُعْطِها أَيَّ إجابَةٍ واضِحَةٍ حَوْلَ المَسْأَلَتَيْنِ. واتَّفَقا على أَنْ تُلازِمَ اللّيدي ديدْلوك المَنْزِلَ في تشِسْني وُلْد مُحْتَفِظَةً بِالسِّرِّ الّذي كَتَمَتْهُ سَنَواتٍ طِوالًا، وأَلّا تَقومَ بِأَيِّ خُطْوَةٍ في مَسْأَلَةِ روزا، وبِالمُقابِلِ تَعَهَّدَ تلْكِنغْهورْن بِإبْقاءِ الأُمورِ عَلى حالِها. كانَ هَمُّهُ الأَوْحَدُ مُراعاةَ السِّير ليسْتِر والمُحافَظَةَ على اسْمِهِ وسُمْعَتِهِ. لٰكِنْ، إذا نَقَضَتِ اللّيدي ديدْلوك الاتِّفاقَ فَلَنْ يَقومَ بِأَيِّ خُطْوَةٍ قَبْلَ إعْلامِها مُسْبَقًا.



بَدَتِ اللّيدي ديدْلوك قَبْلَ الاجْتِماعِ وبَعْدَهُ رابِطَةَ الجَأْشِ ولٰكِنَّها، في الحَقيقَةِ، جاهَدَتْ كَثيرًا. وقَدْ بَدا ذٰلِكَ عَلَيْها وهِيَ عائِدَةٌ بِخُطًى ثابِتَةٍ إلى غُرْفَتِها وقَدِ انْقَبَضَتْ كِلْتا يَدَيْها بِقُوَّةٍ.

لَمْ يَبْدُ مِثْلُ هٰذا الانْضِباطِ عَلى الآنِسَةِ أورْتانْس الّتي اتَّسَعَتْ حَدَقَتاها وظَهَرَتْ عَلى وَجْهِها أماراتُ الغَضَبِ والكَراهِيَةِ وهِيَ تُلْقي التَّحِيَّةَ عَلى الأُسْتاذِ تلْكِنغْهورْن لَدى عَوْدَتِهِ إلى لندن. لَمْ تَكُنْ أورْتانْس قَدْ وَجَدَتْ عَمَلًا بَعْدُ، وطَلَبَتْ مِنَ المُحامي أَنْ يُساعِدَها كَما ساعَدَتْهُ لَمّا عَرَضَتِ الثَّوْبَ أمامَ الصَّبِيِّ جو، وقالَتْ إنَّها سَتَظَلُّ تُلاحِقُ تلْكِنغْهورْن حَتّى يُساعِدَها.

أَرْخى تلْكِنغْهورْن نَفْسَهُ في مَقْعَدِهِ ورَمَقَ أورْتانْس بِنَظْرَةٍ حادَّةٍ، وصاحَ بِها: «لَقَدْ طَرَدَتْكِ سَيِّدَتُكِ مِنَ العَمَلِ لِأَنَّكِ امْرَأَةٌ مُشاكِسَةٌ صَعْبَةُ المِراسِ. وإذا كُنْتِ سَتُضايِقينَني فَسَأُسَلِّمُكِ لِلشُّرْطَةِ.. اِحْذَري تَهْديدي لِأَنَّني سَأُنَفِّذُهُ إذا أَحْوَجْتِني إلى ذٰلِكَ». فَما كانَ مِنْها إلّا أَنْ أَدارَتْ ظَهْرَها وانْسَحَبَتْ.

بَعْدَ تَفْكيرٍ عَميقٍ قَرَّرْتُ أَنَّ الوَقْتَ قَدْ حانَ لِأُخْبِرَ وَلِيَّ أَمْري بِالسِّرِّ الّذي تَكَشَّفَ لي، إذْ أَحْسَسْتُ أَنّني كُنْتُ بِحاجَةٍ إلى مُساعَدَتِهِ لِأَهْتَدِيَ إلى ما يَجِبُ فِعْلُهُ.

أَخْبَرْتُهُ بِكُلِّ شَيْءٍ، واكْتَشَفْتُ أَنَّ شَقيقَةَ السَّيِّدَةِ ديدْلوك، أَيْ «عَرّابَتي» - أَوْ بِالأَحْرى خالَتي - كانَتْ فيما مَضى مَخْطوبَةً لِلسَّيِّدِ بويْثورْن. فَازْدادَ حُزْني لِأَنّني - مِنْ حَيْثُ لا أَدْري - كُنْتُ سَبَبًا لِتَعاسَةِ الآخَرينَ.

في اليَوْمِ التّالي، تَسَلَّمْتُ رِسالَةً مِنْ وَلِيِّ أَمْري تَفيضُ مَحَبَّةً وحَنانًا، عَرَضَ عَلَيَّ فيها أَنْ أُصْبحَ «سَيِّدَةَ بليك هاوْس». فَغَمَرَني الشُّعورُ بِالفَرَحِ. لٰكِنّي، مَعَ ذٰلِكَ، بَكَيْتُ إذْ خِلْتُ أَنَّ شَيْئًا ما يَنْقُصُني مِنْ دونِ أَنْ أَسْتَطيعَ تَحْديدَهُ.

قَرَّرْتُ، في غَمْرَةِ شُعوري بِالامْتِنانِ، أَنْ أَشْغَلَ نَفْسي بِأَعْمالِ البَيْتِ وأَنْ أَكونَ وَدودَةً. وكانَ جَوابي عَلى رِسالَةِ وَلِيِّ أَمْري جَوابًا صامِتًا إذْ تَوَجَّهْتُ إلَيْهِ في صَباحِ اليَوْمِ التّالي وقَبَّلْتُهُ عَلى جَبينِهِ. فَسَأَلَني: «هَلْ هٰذِهِ سَيِّدَةُ بليك هاوْس؟» وأَجَبْتُ بِالإيجابِ.

لَمْ أُخْبِرْ آدا بِشَيْءٍ عَنْ هٰذا الأَمْرِ، وقَرَّرْتُ تَأْجيلَ ذٰلِكَ إلى وَقْتٍ لاحِقٍ.

في تِلْكَ الفَتْرَةِ انْتابَنا جَميعًا القَلَقُ حَوْلَ ريتْشارْد، وبِخاصَّةٍ آدا، فَحُبُّها الكَبيرُ لِريتْشارْد رانَ عَلَيْهِ الحُزْنُ والقَلَقُ لِأَنَّهُ ظَلَّ يُعَوِّلُ كَثيرًا عَلى أَمَلِهِ بِتَحَسُّنِ وَضْعِهِ المادِّيِّ عِنْدَ انْتِهاءِ القَضِيَّةِ في المَحْكَمَةِ. بِالإضافَةِ إلى ذٰلِكَ ظَلَّ ريتْشارْد عَلى عَداوَتِهِ لِوَلِيِّ أَمْري، أَمّا وَضْعُهُ المالِيُّ فَكانَ صَعْبًا لِلغايَةِ. مِنْ أَجْلِ كُلِّ ذٰلِكَ قَرَّرْتُ أَنْ أَذْهَبَ لِرُؤْيَتِهِ.

تَوَجَّهْتُ أَنا وخادِمَتي إلى ثُكْنَةِ ديل، ووَجَدْتُ أَنَّ ريتْشارْد في وَضْعٍ أَسْوَأَ مِمّا تَوَقَّعْتُ. لَقَدْ كانَ مُصَمِّمًا عَلى تَرْكِ الجَيْشِ لِلانْصِرافِ كُلِّيًّا إلى هَمِّهِ الأَكْبَرِ وهُوَ مَوْضوعُ القَضِيَّةِ في المَحْكَمَةِ. وبِالرَّغْمِ مِنْ مَحَبَّتِهِ العَميقَةِ لِآدا فَقَدْ أَغْضَبَني مَوْقِفُهُ المُعادي لِجون جارْنْدايْس وكَراهِيَتُهُ لَهُ.

أَيْقَنْتُ أَنَّني فَشِلْتُ في مَسْعايَ عِنْدَما أَخْفَقْتُ في إِقْناعِ ريتْشارْد بِالبَقاءِ في الجَيْشِ. لِذٰلِكَ قَرَّرْنا أَنْ نُسافِرَ مَعًا إلى لندن في تِلْكَ اللَّيْلَةِ.

عُدْتُ إلى الفُنْدُقِ حَزينَةً. وفيما كُنْتُ أَهُمُّ بِدُخولِ غُرْفَتي سَمِعْتُ أَصْواتَ أَشْخاصٍ عَلى الدَّرَجِ عَرَفْتُ صَوْتًا مِنْها: لَقَدْ كانَ الدُّكْتور وُدْكورْت! فَأَرْسَلْتُ لَهُ بِطاقَةً أَعْلَمْتُهُ فيها بِوُجودي، وجاءَ لِرُؤْيَتي بَعْدَ قَليلٍ.

عَبَّرْتُ عَنْ سُروري بِرُؤْيَتِهِ والتَّرْحيبِ بِهِ فَوْرَ عَوْدَتِهِ إلى إنكلترا إذْ إِنَّ سَفينَتَهُ كانَتْ قَدْ رَسَتْ في ذٰلِكَ اليَوْمِ نَفْسِهِ. وقَدْ لاحَظْتُ أَنَّهُ تَأَثَّرَ لِرُؤْيَةِ التَّغْييرِ الَّذي طَرَأَ عَلى وَجْهي مِنْ جَرّاءِ المَرَضِ.



بَيْنَما كُنّا نَتَحَدَّثُ أَتى ريتْشارْد، وكانَ مَسْرورًا جِدًّا لِلِقاءِ الدُّكْتورِ وُدْكورْت ثانِيَةً. وقَدْ تَناوَلْنا العَشاءَ مَعًا.

بَعْدَ العَشاءِ اسْتَأْذَنَ ريتْشارْد لِلانْصِرافِ إلى تَوْضيبِ أَمْتِعَتِهِ. وخِلالَ غِيابِهِ وَعَدَني وُدْكورْت بِأَنَّهُ، عِنْدَ ذَهابِهِ إلى لَنْدن، سَيَبْذُلُ كُلَّ ما في وُسْعِهِ لِمُساعَدَةِ ريتْشارْد.

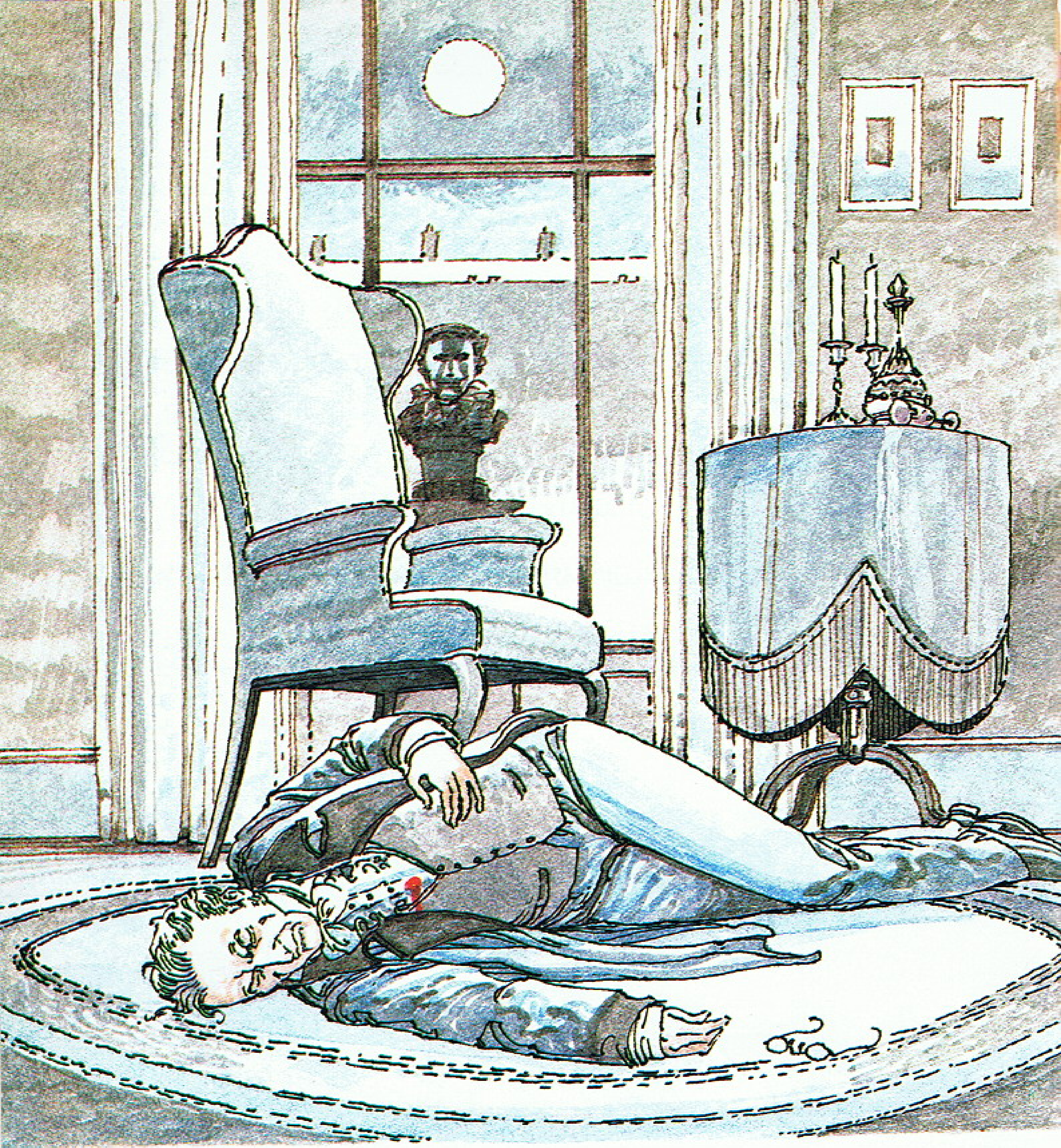
أَبْلَغْتُ وُدْكورْت تَقْديري العَميقَ لِصَداقَتِهِ وإخْلاصِهِ. ولاحَظْتُ، مِنْ نَظْرَتِهِ الأَخيرَةِ قَبْلَ انْطِلاقِنا، أَنَّهُ كانَ بِالفِعْلِ حَزينًا لِأَجْلي. وقَدْ سَرَّني أَنْ يَكونَ وَجْهي الجَديدُ عامِلًا يُظْهِرُ عَطْفَ النّاسِ عَلَيَّ ويُذَكِّرُهُمْ بي.

مَنْ قَتَلَ تلْكِنغْهورْن؟

جاءَ الأُسْتاذُ تلْكِنغْهورْن إلى مَنْزِلِ آلِ ديدْلوك في المَدينَةِ، وطَلَبَ مُقابَلَةَ اللّيدي ديدْلوك، فَاسْتَقْبَلَتْهُ بِإِباءٍ ظاهِرٍ مَعَ عِلْمِها أَنَّ انْتِظارَها لَنْ يَطولَ وأَنَّ الأَوانَ قَدْ آنَ لِكَشْفِ أَمْرِها، فَاللّيدي ديدْلوك كانَتْ قَدْ ساعَدَتْ روزا على الالْتِحاقِ بِالسَّيِّدِ راونْسِول، فَنَقَضَتِ الاتِّفاقَ.

لَمْ يَعُدْ بِاسْتِطاعَةِ تلْكِنغْهورْن أَنْ يَغْفِرَ لِلسَّيِّدَةِ ديدْلوك تَعْريضَها مَرْكَزَ العائِلَةِ ومَكانَتَها لِلشُّبْهَةِ، لِأَنَّ مِنْ واجِبِهِ المُحافَظَةَ على اسْمِ السِّير ليسْتِر وسُمْعَتِهِ. لَقَدْ أَصْبَحَ الآنَ بِحِلٍّ مِنْ وُجوبِ إعْلامِها مُسْبَقًا بِنَواياهُ، وصارَ بِإِمْكانِهِ التَّصَرُّفُ بِحَسَبِ ما يُمْليهِ عَلَيْهِ الواجِبُ.

تَمالَكَتِ اللّيدي ديدْلوك نَفْسَها ومَشَتْ نَحْوَ البابِ، وفَتَحَتْهُ مُؤْذِنَةً لِلأُسْتاذِ تلْكِنغْهورْن بِالخُروجِ مِنَ المَنْزِلِ.



لَمّا وَصَلَ تلْكِنغْهورْن إلى بَيْتِهِ دَخَلَ إلى غُرْفَةِ المَكْتَبةِ ، وجلَسَ يُفكِّرُ صامِتًا وقَدْ خَيَّمَ عَلَيْهِ اللَّيْلُ السّاكِنُ بِقَمَرِهِ المُنيرِ ونُجومِهِ المُتَلأْلِئَةِ . وفَجْأَةً صَدَرَ صَوْتٌ مُدَوٍّ : كانَ صَوْتَ إطْلاقِ نارٍ ، وقَدِ اسْتَقَرَّتِ الرَّصاصَةُ في قَلْبِ المُحامي !

قِصَّة إسْتر – ١٢: الحُبّ الكَبير

بَعْدَ أَيّامٍ مِنْ عَوْدَتي إلى بليك هاوْس اضْطُرَّ وَلِيُّ أَمْري لِلذَّهابِ إلى لنْدن لِمُتابَعَةِ أَعْمالِهِ.

رافَقْتُهُ أَنا وآدا، وأَقَمْنا عِدَّةَ أَشْهُرٍ في المَسْكَنِ الّذي كُنّا قَدْ أَقَمْنا فيهِ سابِقًا. وقَدْ شَغَلْتُ نَفْسي بِمُساعَدَتِهِ في مُراسَلاتِهِ وبَعْضِ أُمورِ عَمَلِهِ.

اِلْتَقَيْنا بِالدُّكْتورِ وُدْكورْت عِدَّةَ مَرّاتٍ. وقَدْ بَرْهَنَ وُدْكورْت عَلى أَنَّهُ صَديقٌ أَمينٌ لِريتْشارْد كَما كانَ قَدْ وَعَدَ سابِقًا. وأَعْتَقِدُ أَنَّ روحَ الصَّداقَةِ لِلجَميعِ تَنْبُعُ مِنْ داخِلِ قَلْبِهِ لِأَنَّهُ كانَ يَهْتَمُّ بِكُلِّ الفُقَراءِ الّذينَ يَتَوَلّى العِنايَةَ الطِّبِّيَّةَ بِهِمْ.

وقَدْ صادَفَ أَنَّهُ كانَ مَعَ الشَّقِيِّ البائِسِ جو عِنْدَ وَفاتِهِ. وعَلِمْتُ أَنَّهُ بَذَلَ أَقْصى طاقَتِهِ في مُحاوَلَةِ التَّخْفيفِ عَنْهُ.



أَطْلَعَني الدُّكْتورُ وُدْكورْت عَلى أَحْوالِ ريتْشارْد، وقَدْ أَثارَ وَضْعُهُ قَلَقي فَاقْتَرَحْتُ عَلى آدا الذَّهابَ لِزيارَتِهِ. كانَتْ رَدَّةُ فِعْلِها تِجاهَ هذا الاقْتِراحِ أَقَلَّ مِمّا تَوَقَّعْتُ، لكِنّي لَمْ أَسْتَغْرِبْ ذلِكَ كَثيرًا لِأَنَّها كانَتْ، خِلالَ الأَسابيعِ القَليلَةِ السّابِقَةِ، ساهِمَةً كَئيبَةً.

اِهْتَدَيْنا إلى مَسْكَنِ ريتْشارْد بِسُهولَةٍ، وظَنَنْتُ أَنَّ آدا تَعْرِفُ الطَّريقَ الصَّحيحَ بِحَدْسٍ أَكيدٍ. دَخَلْنا مَعًا إلى غُرْفَةٍ قاتِمَةٍ مُعْتِمَةٍ، ووَجَدْنا ريتْشارْد غارِقًا في التَّفْكيرِ وهُوَ جالِسٌ إلى طاوِلَةٍ مَليئَةٍ بِأَوْراقٍ غَطّاها الغُبارُ.

كانَتْ حالُهُ تَدْعو لِلرِّثاءِ، فَعَيْناهُ غائِرَتانِ وشَفَتاهُ جافَّتانِ، كَما أَنَّهُ قَدْ قَضَمَ كُلَّ أَظْفارِهِ. ولكِنَّهُ مَعَ ذلِكَ، اسْتَقْبَلَنا بِتَرْحابٍ ومَوَدَّةٍ كَعادَتِهِ، وعَبَّرَ لَنا عَنْ ثِقَتِهِ الرّاسِخَةِ بِأَنَّ الثَّرْوَةَ سَتَأْتيهِ حَتْمًا لَدى انْتِهاءِ القَضِيَّةِ في المَحْكَمَةِ. كانَ أَمَلُهُ الثّابِتُ هذا أَشْبَهَ بِهَوَسٍ أَعْمى يَحْجُبُ عَنْهُ التَّفْكيرَ بِاسْتِحالَةِ تَحَقُّقِ هذا الأَمْرِ. بَعْدَ ذلِكَ صَمَتَ ريتْشارْد وارْتَمى عَلى الأَريكَةِ، مُمْسِكًا رَأْسَهُ بِيَدَيْهِ، وقالَ: «إِنَّ هذا المَوْضوعَ يُتْعِبُني كَثيرًا ويَسْتَنْزِفُ كُلَّ قُوايَ».

هُنا قامَتْ آدا، وخَلَعَتْ قُبَّعَتَها عَنْ رَأْسِها، ورَكَعَتْ عَلى الأَرْضِ قُرْبَهُ. ثُمَّ نَظَرَتْ إِلَيَّ وقالَتْ بِكُلِّ حَزْمٍ: «يا عَزيزَتي إِسْتِر، لَنْ أَعودَ إلى البَيْتِ». فَظَهَرَتْ لي الحَقيقَةُ وعَرَفْتُ سَبَبَ كَآبَةِ آدا وصَمْتِها في الفَتْرَةِ الأَخيرَةِ. ثُمَّ أَضافَتْ: «إِنَّني سَأَظَلُّ مَعَ زَوْجي... لَقَدْ تَزَوَّجْنا مُنْذُ حَوالَي شَهْرَيْنِ... سَأَبْقى مَعَ زَوْجي الحَبيبِ».

قالَتْ آدا ذلِكَ وضَمَّت رَأْسَ ريتْشارْد إلى صَدْرِها بِحَرارَةٍ، فَأَيْقَنْتُ أَنَّ الحُبَّ الّذي بَيْنَهُما مِنَ النَّوْعِ الّذي لا يَقْوَى عَلَيْهِ سِوى المَوْتِ.

اِتَّجَهَتْ آدا نَحْوي فَلَقيتُها مُعانِقَةً وجَفَّفْتُ دُموعَها المُتَرَقْرِقَةَ، وهِيَ تَطْلُبُ الصَّفْحَ لِأَنَّها كَتَمَتِ الأَمْرَ عَنّي. ثُمَّ جَلَسْنا جَميعًا عَلى الأَريكَةِ ونَحْنُ لا نَدْري ما الّذي سَيْطَرَ عَلَيْنا أَبُكاءٌ أَمْ فَرَحٌ.

القَبْضُ عَلى القاتِلِ

اِحْتَشَدَ جَمْعٌ كَبيرٌ مِنَ المُشَيِّعينَ في جِنازَةِ الأُسْتاذِ تلْكِنجْهورْن، ومِنْ بَيْنِهِمُ السِّير ليسْتِر والمُفَتِّشُ باكِت. لَمْ يَذْهَبْ باكِت، بَعْدَ الدَّفْنِ، إلى مَنْزِلِهِ مَعَ أَنَّهُ يَأْنَسُ عادَةً بِرِفْقَةِ زَوْجَتِهِ. فَالسِّير ليسْتِر كانَ قَدْ كَلَّفَهُ بِمُهِمَّةِ الكَشْفِ عَنْ قاتِلِ المُحامي تلْكِنجْهورْن، فَلا بَأْسَ إذا تَرَكَ زَوْجَتَهُ مَعَ النَّزيلَةِ الجَديدَةِ الّتي اسْتَأْجَرَتْ غُرْفَةً في مَنْزِلِهِما.

ذَهَبَ السَّيِّدُ باكِت إلى مَنْزِلِ البارون ديدْلوك في مَدينَةِ لَنْدن -وهُوَ الآنَ يَحْمِلُ مِفْتاحًا لِلْبَيْتِ- ووَجَدَ رِسالَةً أُخْرى مُوَجَّهَةً إلَيْهِ، كُتِبَ عَلَيْها -كَالرَّسائِلِ السّابِقَةِ- اسْمُ «اللّيدي ديدْلوك».

كانَ السِّير ليسْتِر قَدْ غَضِبَ وحَزِنَ كَثيرًا لِمَقْتَلِ الأُسْتاذِ تلْكِنجْهورْن، وأَحَسَّ أَنَّ مِنْ واجِبِهِ أَنْ يَعْمَلَ عَلى كَشْفِ المُجْرِمِ الآثِمِ الّذي قَتَلَ هذا المُحامِيَ المُخْلِصَ الّذي كانَ مُتَفانِيًا في خِدْمَتِهِ.

أَكَّدَ السَّيِّدُ باكِت أَنَّهُ عَلى وَشْكِ الانْتِهاءِ مِنَ التَّحْقيقاتِ، وأَنَّهُ سَيَتَمَكَّنُ مِنْ كَشْفِ الحَقيقَةِ بَعْدَ بِضْعِ ساعاتٍ. فَسُرَّ السِّير ليسْتِر لِهذا الأَمْرِ، وتَواعَدا عَلى الاجْتِماعِ في اليَوْمِ التّالي.

أَتى السَّيِّدُ باكِت، في صَباحِ اليَوْمِ التّالي، هادِئًا مُطْمَئِنًّا. وعِنْدَ دُخولِهِ غُرْفَةَ

المَكْتَبَةِ، أَغْلَقَ البابَ وَراءَهُ، وقالَ مُخاطِبًا السِّير ليسْتِر: «سَيِّدي البارونَ السِّير ليسْتِر ديدْلوك، لَقَدْ أَنْهَيْتُ التَّحْقيقَ في القَضِيَّةِ، ولَدَيَّ الأَدِلَّةُ الّتي تُدينُ المُجْرِمَ. إِنَّ القاتِلَ امْرَأَةٌ». فَهَتَفَ السِّير ليسْتِر مُنْفَعِلًا: «يا لَلْهَوْلِ!»

وأَرْدَفَ المُفَتِّشُ قائِلًا: «إِنَّ مِنْ واجِبي، يا سَيِّدي، أَنْ أُنَبِّهَكَ إِلى أَنَّ ما سَأَكْشِفُهُ سَيَكونُ صاعِقًا». وإِذْ شَكَرَ السِّير ليسْتِر مُحَدِّثَهُ عَلى لَباقَتِهِ وتَفَهُّمِهِ، رَجاهُ أَنْ يُكْمِلَ حَديثَهُ، فَلا لُزومَ لإِخْفاءِ الحَقيقَةِ أَوْ تَأْجيلِها.





تَسَمَّرَ السِّير ليسْتِر في مَقْعَدِهِ لِيَسْمَعَ فُصولَ القِصَّةِ، وقَدِ اقْشَعَرَّ بَدَنُهُ وهُوَ يُحاوِلُ ضَبْطَ أَعْصابِهِ. أَخْبَرَهُ المُفَتِّشُ عَنْ شَكِّ المُحامي تلْكِنجْهورْن بِأَمْرِ اللّيدي ديدْلوك، وعَنِ الرَّسائِلِ الّتي اكْتَشَفَها وأَكَّدَتْ صِحَّةَ شَكِّهِ، وعَنْ ضابِطٍ في الجَيْشِ يُسَمّى هودُن، وعَنْ طِفْلَةٍ صَغيرَةٍ... كانَ السِّير ليسْتِر يَئِنُّ وهُوَ يُحَدِّقُ إلى هذا الرَّجُلِ الواقِفِ أَمامَهُ يَسْتَنْزِفُ دَمَ قَلْبِهِ قَطْرَةً قَطْرَةً بِما يَكْشِفُهُ مِنْ أَسْرارٍ. كُلُّ هذا واسْمُ المَرْأَةِ القاتِلَةِ لَمْ يُكْشَفْ بَعْدُ، لِذلِكَ أَحْكَمَ السِّير ليسْتِر جِلْسَتَهُ واتَّسَعَتْ حَدَقَتاهُ مُهَيِّئًا نَفْسَهُ لِسَماعِ مُحَدِّثِهِ يَقولُ: «إِنَّ الَّتي اقْتَرَفَتْ هذِهِ الجَريمَةَ هِيَ الآنَ في هذا

المَنْزِلِ، وإنّي سَأَقْبِضُ عَلَيْها بِحُضورِكَ، يا سَيِّدي. فَأَرْجو أَلّا تَنْفَعِلَ وأَنْ تُحافِظَ عَلى هُدوئِكَ. سَتَنْجَلي القَضِيَّةُ أَمامَكَ مِنْ أَلِفِها إلى يائِها».

واقْتيدَتْ إلى الغُرْفَةِ امْرَأَةٌ صامِتَةٌ مُتَكَبِّرَةٌ يَشِعُّ مِنْ عَيْنَيْها بَريقُ الشَّرِّ. إنَّها الآنِسَةُ أورْتانْس!

كادَ السِّير ليسْتِر يُصْعَقُ مِنْ هَوْلِ المُفاجَأَةِ. وقَدْ أَوْضَحَ المُفَتِّشُ باكِت كَيْفَ اكْتَشَفَ المُسَدَّسَ أَداةَ الجَريمَةِ، وكَيْفَ أَنَّ السَّيِّدَةَ باكِت رَأَتِ الآنِسَةَ أورْتانْس تَكْتُبُ الرَّسائِلَ المُغْرِضَةَ المُوَجَّهَةَ لِزَوْجِها، لأَنَّ أورْتانْس كانَتْ هِيَ النَّزيلَةَ الجَديدَةَ في مَنْزِلِ باكِت، وكَيْفَ أَنَّ حِقْدَ أورْتانْس الأَعْمى دَفَعَها لِمُحاوَلَةِ الإيقاعِ بِسَيِّدَتِها السّابِقَةِ.

بَعْدَ ذلِكَ اقْتيدَتْ أورْتانْس إلى خارِجِ الغُرْفَةِ، وهِيَ تَتَلَفَّظُ بِالشَّتائِمِ والتَّهْديداتِ، وتُرِكَ السِّير ليسْتِر وَحيدًا غارِقًا في غَمِّهِ وكَدَرِهِ.

الهُروب

ما كادَتْ قِمَّةُ المَأْساةِ تَتَكَشَّفُ، عَلى يَدِ المُفَتِّشِ السَّيِّدِ باكِت، حَتّى جاءَ إلى المَنْزِلِ السَّيِّدُ جوبي، وطَلَبَ مُقابَلَةَ اللّيدي ديدْلوك. وقَدْ نَبَّهَها إلى أَنَّ الرَّسائِلَ، الّتي ظَنَّ سابِقًا أَنَّها قَدْ تَلِفَتْ، وَقَعَتْ مُؤَخَّرًا في يَدِ المُحامي تلْكِنجْهورْن والمُفَتِّشِ باكِت. وأَضافَ: «لَسْتُ أَدْري إذا كانَ في هذا ما يَنْعَكِسُ عَلَيْكِ، لكِنْ أَرْجو أَنْ تَكوني حَذِرَةً. وبِما أَنّي قَدْ وَعَدْتُ الآنِسَةَ سَمِرْسون بِتَرْكِ المَوْضوعِ وعَدَمِ مُتابَعَةِ القَضِيَّةِ، فَإِنّي أُؤَكِّدُ أَنَّكِ لَنْ تَرَيْ وَجْهي بَعْدَ الآنَ. وَداعًا سَيِّدَتي.» ثُمَّ انْصَرَفَ.

فَكَّرَتِ اللّيدي ديدْلوك في وَضْعِها الحَرِجِ، وعَمَدَتْ إلى وَرَقَةٍ فَكَتَبَتْ لِزَوْجِها بِضْعَةَ أَسْطُرٍ، عَبَّرَتْ فيها عَنْ أَسَفِها وشُعورِها بِالخَجَلِ والذَّنْبِ. ثُمَّ لَفَّتْ نَفْسَها بِرِداءٍ سَميكٍ ووَضَعَتْ وِشاحَها، ونَزَلَتْ إلى الرَّدْهَةِ (الصَّالَةِ) -وكانَتْ خالِيَةً- وغادَرَتِ المَنْزِلَ، وكانَتِ الرّيحُ البارِدَةُ تُوَلْوِلُ (يَعْلو صَوْتُها) في الخارِجِ.

كانَ السِّير ليسْتِر ديدْلوك مُسْتَلْقِيًا في فِراشِهِ يُريحُ تَعَبَ جَسَدِهِ الّذي أَنْهَكَتْهُ السِّنونَ وأَلَمَ نَفْسِهِ الّتي حَطَّمَتْها الأَحْداثُ الأَخيرَةُ، فَدَخَلَتْ مُدَبِّرَةُ المَنْزِلِ وناوَلَتْهُ رِسالَةَ اللّيدي ديدْلوك. قَرَأَ الرِّسالَةَ مَرَّتَيْنِ والأَسى يَعْصِرُ قَلْبَهُ، ثُمَّ وَضَعَها جانِبًا وقالَ: «يَجِبُ أَنْ نَجِدَها.. سامَحَنا اللهُ جَميعًا.»



تَمَّ اسْتِدْعاءُ السَّيِّدِ باكِت بِسُرْعَةٍ وأُفْهِمَ مُهِمَّتَهُ الجَديدَةَ. فَدَخَلَ غُرْفَةَ اللّيدي ديدْلوك وأَخَذَ يُفَتِّشُها بِدِقَّةٍ بَحْثًا عَنْ أَيِّ دَليلٍ قَدْ يُساعِدُهُ في مُهِمَّتِهِ. ولَمْ يَجِدْ شَيْئًا مِنْ هذا القَبيلِ سِوى مِنْديلٍ أَبْيَضَ طُرِّزَ عَلَيْهِ الاسْمُ: «إِسْتر سَمِرْسون».

قِصَّة إِسْتر – ١٣: البَحْث شَمالًا وجَنوبًا

بَعْدَ أَنْ أَوَيْتُ إلى غُرْفَتي لأَنامَ، دَقَّ وَلِيُّ أَمْري البابَ وناداني طالِبًا مِنّي أَنْ أَسْتَيْقِظَ في الحالِ.

أَخْبَرَني أَنَّ أُمّي قَدْ هَرَبَتْ مِنْ مَنْزِلِ زَوْجِها السِّير ليسْتِر ديدْلوك وأَنَّ مُفَتِّشًا يُسَمّى السَّيِّدَ باكِت يَنْتَظِرُني. قالَ المُفَتِّشُ إِنَّهُ مُكَلَّفٌ بِأَنْ يَجِدَ أُمّي ويَنْقُلَ لَها تَأْكيدَ زَوْجِها عَلى حُبِّهِ وعَطْفِهِ، وطَلَبَ مِنّي مُرافَقَتَهُ في بَحْثِهِ.

لَقَدْ كُنْتُ في دُوّامَةٍ مِنَ الحُزْنِ، حَتّى إِنّي لا أَكادُ أَذْكُرُ شَيْئًا مِنَ الرِّحْلَةِ إلى بليك هاوْس سِوى أَنَّها كانَتْ لَيْلَةً بارِدَةً جِدًّا وأَنَّ الأَرْضَ كانَتْ مَكْسُوَّةً بِالثَّلْجِ. لَمّا وَصَلْنا إلى بليك هاوْس اكْتَشَفْنا أَنَّ أُمّي لَمْ تَمُرَّ مِنْ هُناكَ. فَتَمَلَّكَني اليَأْسُ، ورَأَيْتُ أَنْ نَذْهَبَ إلى كوخِ عامِلِ البِناءِ. هُناكَ سَأَلْنا عَنْ جيني فَأَخْبَرَنا رَجُلٌ مُتَجَهِّمُ الوَجْهِ أَنَّها قَدْ ذَهَبَتْ إلى لَنْدن، وأَفادَ أَنَّ سَيِّدَةً مُتْعَبَةً شاحِبَةَ الوَجْهِ قَدْ مَرَّتْ بِالكوخِ ثُمَّ تابَعَتْ طَريقَها مُتَّجِهَةً نَحْوَ الشَّمالِ.

أَخَذْنا نَتَّجِهُ شَمالًا ونَحْنُ نُكابِدُ التَّعَبَ ونَتَحَمَّلُ البَرْدَ القارِسَ آمِلينَ العُثورَ عَلَيْها. ثُمَّ تَساقَطَ الثَّلْجُ بِغَزارَةٍ قَبْلَ الفَجْرِ، ولَمْ أَكُنْ قَدْ أَكَلْتُ أَوْ شَرِبْتُ أَوْ نِمْتُ مُنْذُ بَدْءِ الرِّحْلَةِ.



كانَ مِمّا أَبْقَى نورَ الأَمَلِ مُضيئًا أَمامَنا أَنّنا أُخْبِرْنا، عَلى الطَّريقِ، أَنَّ امْرَأَةً تَرْتَدي ثِيابًا فاخِرَةً شُوهِدَتْ وهِيَ تَسيرُ عَلى قَدَمَيْها. ثُمَّ فُقِدَ الأَثَرُ بَعْدَ ذلِكَ ومَلأَني اليَأْسُ وتَلاشَى أَمَلي المُرْتَجى.

تَوَقَّفْنا لِتَغْييرِ الجِيادِ المُتْعَبَةِ، وكانَ السَّيِّدُ باكِت ساكِتًا قانِطًا طَوالَ الوَقْتِ. وفيما كانَ واقِفًا يُراقِبُ السّائِسَ مُنْهَمِكًا في عَمَلِهِ، رَأَيْتُهُ يَبْتَسِمُ. ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ قائِلًا بِكُلِّ ثِقَةٍ: «لا تَجْزَعي، لَقَدْ كَشَفْتُ الأَمْرَ.. سَنَعودُ إِلى لَنْدن بَحْثًا عَنْ جيني».

فَرَجَوْتُهُ، يائِسَةً، أَلّا يَتْرُكَ والِدَتي في تِلْكَ اللَّيْلَةِ البارِدَةِ. لكِنَّهُ طَلَبَ أَنْ أَثِقَ بِصِحَّةِ تَصَرُّفِهِ، فَلَمْ يَكُنْ أَمامي غَيْرُ التَّسْليمِ بِرَأْيِهِ.

قِصَّة إِسْتر - ١٤: وأَخيرًا وَجَدْناها!

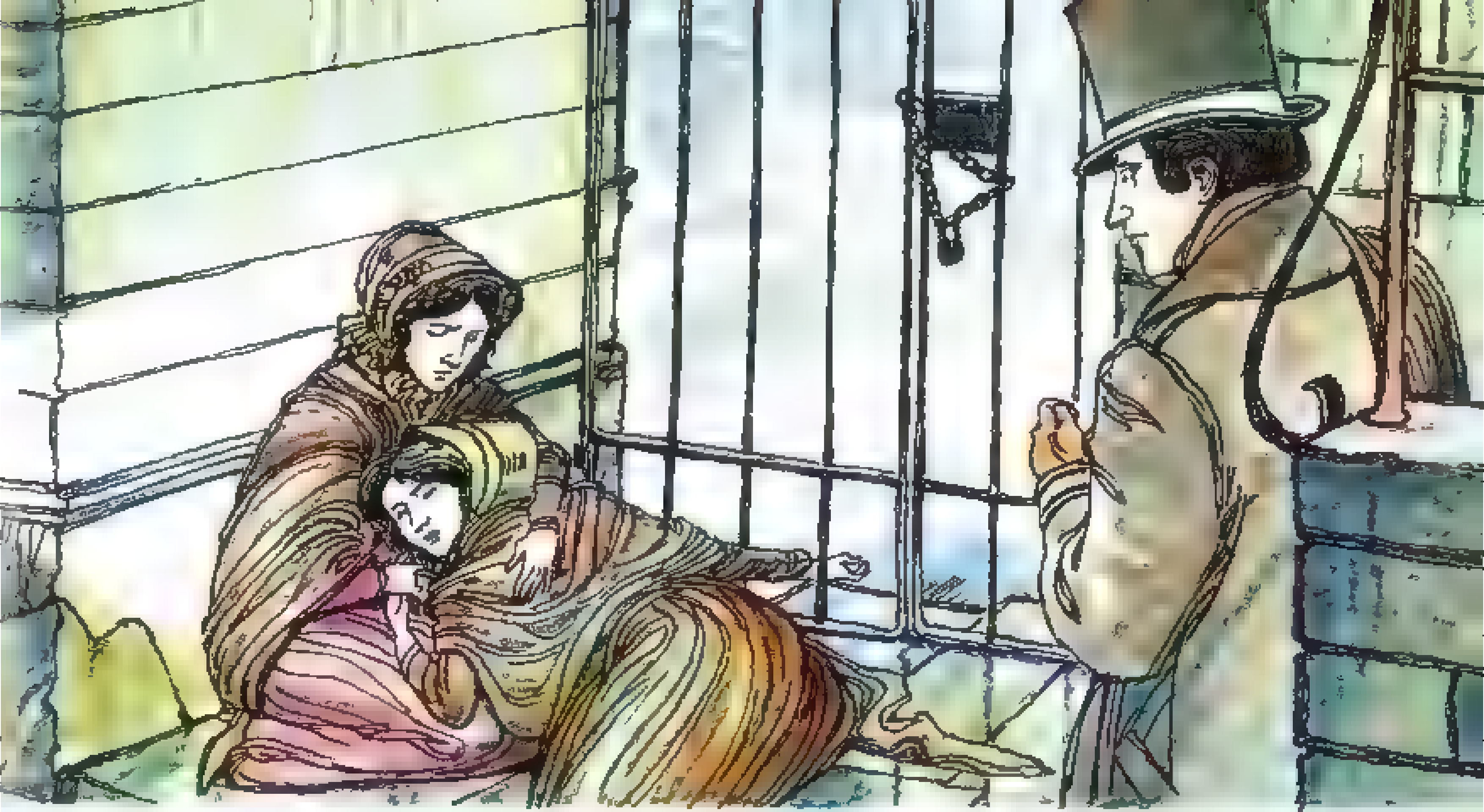
وَصَلْنا لَندن في الثّالِثَةِ فَجْرًا. كُنْتُ مُتَلاشِيَةً مِن التَّعَبِ فَلَمْ أَعْرِفِ اسْمَ الشّارِعِ الّذي كُنّا نَعْبُرُهُ، غَيْرَ أَنّي لاحَظْتُ أَنَّنا مَرَرْنا بِعِدَّةِ أَزِقَّةٍ ضَيِّقَةٍ.

كانَ باكِت يَتَكَلَّمُ مَعَ كُلِّ شُرْطِيٍّ يَراهُ في الطَّريقِ، وأَخيرًا سَأَلَني إذا كُنْتُ قادِرَةً عَلى السَّيْرِ مَسافَةً قَصيرَةً. فَنَزَلْتُ مِنَ العَرَبَةِ وَوَجَدْتُ أَنَّنا كُنّا قُرْبَ المَحْكَمَةِ العُلْيا. ثُمَّ سَمِعْتُ صَوْتَ السّاعَةِ الكُبْرى تَدُقُّ الخامِسَةَ والنِّصْفَ فيما كُنّا نَجُرُّ أَقْدامَنا عَلى ماءِ المَطَرِ المُتَجَمِّدِ.

كانَ السَّيِّدُ باكِتَ يَحْمِلُ مِصْباحًا، فَرَأَيْتُ، عَلى ضَوْئِهِ الباهِتِ، شَكْلَ إِنْسانٍ يَمُرُّ قُرْبَنا، ولَمْ أُصَدِّقْ أَنَّهُ الدُّكْتورُ وُدْكوزت، وكانَ عائِدًا مِنْ زِيارَةٍ صَباحِيَّةٍ مُبَكِّرَةٍ لِأَحَدِ مَرْضاهُ.

رَآني وُدْكوزت وأَنا أَرْتَعِشُ مَذْعورَةً والدُّموعُ تَمْلأُ عَيْنَيَّ فَخَلَعَ مِعْطَفَهُ ولَفَّني بِهِ. كانَ قَدْ عَلِمَ، مِنْ وَلِيِّ أَمْري، بِأَنَّني أَسْعَى مَعَ السَّيِّدِ باكِت لِلعثُورِ عَلى أُمّي، فَأَصَرَّ عَلى مُرافَقَتِنا. كانَ مَعَ وُدْكوزت رِسالَةٌ لي مِنْ أُمّي تَرَكَتْها عِنْدَ السَّيِّدِ سناجْسبي وقَدْ وَصَلَتْ عِنْدَهُ تائِهَةً مُتْعَبَةً وطَلَبَتْ أَنْ يَدُلَّها عَلى الطَّريقِ إلى المَقبَرَةِ. أَعْطَى سناجْسبي الرِّسالَةَ لِلدُّكْتورِ وُدْكوزت الّذي أَكَّدَ لَهُ أَنَّهُ يَعْرِفُني، وذلِكَ في تِلْكَ اللَّيْلَةِ أَثْناءَ عِيادَةِ الطَّبيبِ لِوالِدَةِ سناجْسبي المَريضَةِ.

عَبَّرَتْ أُمّي، في رِسالَتِها، عَنْ شُعورِها العَميقِ بِالذَّنْبِ وبِالنَّدَمِ، وعَنْ مَدى تَعاسَتِها القاتِلَةِ، وطَلَبَتْ مِنّي العَفْوَ والصَّفْحَ.



أَكْمَلْنا سَيْرَنا نَحْوَ المَقْبَرَةِ، وكانَتْ قُوايَ خائِرَةً. فَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَمْشِيَ بِدونِ الاسْتِنادِ إلى الدُّكْتورِ وُدْكورْت.

لَمّا وَصَلْنا كانَتِ البَوّابَةُ الحَديدِيَّةُ مُغْلَقَةً، وتَمَلَّكَني الفَزَعُ لَمّا رَأَيْتُ، عَلى دَرَجَةٍ أَمامَ البَوّابَةِ، جيني المِسْكينَةَ مُلْقاةً جُثَّةً بِلا حَراكٍ. فَتَقَدَّمْتُ مِنْها جَزِعَةً، وأَدَرْتُ رَأْسَها نَحْوي. لكِنَّ الوَجْهَ الّذي رَأَيْتُهُ لَمْ يَكُنْ وَجْهَ جيني! بَلْ كانَ وَجْهَ أُمّي. ضَمَمْتُ رَأْسَ أُمّي الشّاحِبَ البارِدَ إلى صَدْري وقَدْ جَفَّتِ الدُّموعُ في عَيْنَيَّ.

قِصَّة إسْتر – ١٥: حُزْن فَفَرَح

لَنْ أَتَكَلَّمَ عَنْ حُزْني وأَلَمي لِأَنّي لا أَسْتَطيعُ أَنْ أَصِفَ مَداهُما.

والحَقيقَةُ أَنَّ أُمّي وجيني كانَتا قَدْ تَبادَلَتا ثِيابَهُما في الكوخِ، وأَنَّ الّتي سارَتْ



شَمالًا لابِسَةً ثِيابًا فاخِرَةً هِيَ جيني لا أُمّي.

بَعْدَ وَفاةِ أُمّي سَكَنَتْني الكَآبَةُ وأُصِبْتُ بِمَرَضٍ بَسيطٍ، لكِنَّ الجَميعَ عامَلوني بِلُطْفٍ ومَحَبَّةٍ. كانَتْ آدا الغالِيَةُ تَزورُني مَرَّتَيْنِ يَوْمِيًّا، وغَمَرَني الدُّكْتورُ وُدْكورْت بِفَيْضِ اهْتِمامِهِ ورِعايَتِهِ، وكانَ يَمُرُّ لِلاطْمِئْنانِ عَلَيَّ كُلَّ يَوْمٍ. وقَدْ لَفَتَ بِطيبَتِهِ واهْتِمامِهِ نَظَرَ وَلِيِّ أَمْري الّذي أَكْبَرَ مَوْقِفَهُ، واقْتَرَحَ عَلَيْهِ العَمَلَ في يورْكشِر في عِيادَةٍ لِرِعايَةِ الفُقَراءِ، فَقَبِلَ بِذلِكَ.

بَعْدَ شِفائي عُدْتُ إلى التَّرَدُّدِ على آدا، وقَدْ أَخَذَتْ تُقَلِّلُ مِنْ زِياراتها لي بَعْدَ تَحَسُّنِ حالَتي الصِّحِّيَّةِ وذلِكَ لِتَتَفَرَّغَ لِلاهْتِمامِ بِريتْشارْد الّذي كانَ لا يَزالُ عَلى مَوْقِفِهِ مِنَ السَّيِّدِ جارنْدايْس. ولَقَدْ هالَني أَنْ أَرى ريتْشارْد في حالَةٍ مَأْساوِيَّةٍ إِذْ أَنْهَكَهُ الأَلَمُ وتَمَلَّكَهُ اليَأْسُ وبَدا عَلَيْهِ الشُّحوبُ والهُزالُ. وقَدْ ضَعُفَتْ كُلُّ قُواهُ ما عَدا قُوَّةَ حُبِّهِ لِآدا.

أَمّا المِسْكينَةُ آدا فَكانَتْ شَديدَةَ القَلَقِ عَلى حالَتِهِ المُتَدَهْوِرَةِ، بِالرَّغْمِ مِنْ رِعايَةِ صَديقِنا الدُّكْتورِ وُدْكورْت. وكانَتْ تَأْمُلُ أَنَّ الطِّفْلَ الّذي سَتَلِدُهُ قَريبًا قَدْ يُؤْنِسُ ريتْشارْد ويُغَيِّرُ مِنْ نَظْرَتِهِ إلى الحَياةِ.

لَمْ أَتْرُكْ يَوْمًا واحِدًا يَمُرُّ مِنْ دونِ قِيامي بِزِيارَةِ آدا. ومَرَّتِ الشُّهورُ وأَنا أَرى ريْتشارْد يَزْدادُ هُزالًا. وقَدْ أَكَّدَ الدُّكْتورُ وُدْكورْت أَنَّهُ لَمْ يَعُدْ بِاسْتِطاعَتِهِ أَنْ يُقَدِّمَ لَهُ مِنَ العِنايَةِ الطِّبِّيَّةِ أَكْثَرَ مِمّا فَعَلَ.

في إِحْدى الأُمْسِيّاتِ أَوْصَلَني الدُّكْتورُ وُدْكورْت مِنْ مَنْزِلِ آدا إلى البَيْتِ. وإِذْ لَمْ يَكُنْ في البَيْتِ أَحَدٌ، وَجَدَ وُدْكورْت الفُرْصَةَ سانِحَةً، فَصَرَّحَ بِحُبِّهِ، وطَلَبَ يَدي لِلزَّواجِ.

غَمَرَني شُعورٌ عَميقٌ بِالبَهْجَةِ والاعْتِزازِ بِعاطِفَتِهِ تِلْكَ. لكِنّي لَمْ أَكُنْ طَليقَةَ اليَدِ، فَأَخْبَرْتُهُ بِعَرْضِ وَلِيِّ أَمْري عَلَيَّ في رِسالَتِهِ، وصَرَّحْتُ بِأَنَّني لا يُمْكِنُ أَنْ أَرْفُضَ ذلِكَ الإنْسانَ الشَّهْمَ الّذي عامَلَني بِكُلِّ عَطْفٍ ومَحَبَّةٍ. أَدارَ وُدْكورْت وَجْهَهُ بِصَمْتٍ وخَرَجَ وأَنا أَنْظُرُ إِلَيْهِ والدُّموعُ تَمْلَأُ عَيْنَيَّ.

في اليَوْمِ التّالي تَحَدَّثْتُ مَعَ وَلِيِّ أَمْري، ووَعَدْتُهُ بِالزَّواجِ مِنْهُ في الشَّهْرِ اللّاحِقِ. وبَعْدَ ذلِكَ مَرَّتْ فَتْرَةٌ كُنْتُ فيها مُنْشَغِلَةً بِالاهْتِمامِ بِآدا وريتْشارْد.

في أَحَدِ الأَيّامِ غادَرَ وَلِيُّ أَمْري المَدينَةَ وتَوَجَّهَ إلى الرّيفِ حَيْثُ يَعْمَلُ الدُّكْتورُ وُدْكورْت. وَصَلَتْني، بَعْدَ أَيّامٍ كَلِمَةٌ مِنْ وَلِيِّ أَمْري يَدْعوني لِلَّحاقِ بِهِ إلى الرِّيفِ. ومَعَ أَنّي اسْتَغْرَبْتُ الأَمْرَ فَقَدْ ذَهَبْتُ إلى يوزْكشِر يَمْلَؤُني الفُضولُ.

كَشَفَ وَلِيُّ أَمْري أَنَّهُ قَدِ اشْتَرى لِلدُّكْتورِ وُدْكورْت بَيْتًا، تَعْبيرًا مِنْهُ عَنْ تَقْديرِهِ لِمَواقِفِ الطَّبيبِ الإنْسانِيَّةِ. وطَلَبَ مِنّي –بِصِفَتي مُدَبِّرَةَ مَنْزِلٍ مُمْتازَةً– أَنْ

أَقومَ بِاللَّمَساتِ الأَخيرَةِ لِتَرْتيبِ البَيْتِ. وبِقَدْرِ ما أَذْهَلَني هذا المَوْقِفُ الشَّهْمُ مِنْ وَلِيِّ أَمْري أَذْهَلَني تَرْتيبُ البَيْتِ ونِظامُهُ القَريبُ مِنْ ذَوْقي، وأَخَذْتُ أُفَكِّرُ بِأَنَّ هذا المَنْزِلَ قَدْ يُذَكِّرُ الدُّكْتورَ وُدْكورْت بي وبِخَسارَتِهِ لي.

وأَخيرًا أَخَذَني وَلِيُّ أَمْري لِأَقْرَأَ اسْمَ هذا المَنْزِلِ الرّيفِيِّ الجَميلِ. لَقَدْ كانَ «بليك هاوْس»! فَتَمَلَّكَتْني رِعْشَةٌ وجَمُدْتُ مَشْدوهَةً. وخاطَبَني بِلَهْجَةٍ حانِيَةٍ قائِلًا: «يا عَزيزَتي إسْتر. إنَّكِ سَتُصْبِحينَ فِعْلًا «سَيِّدَةَ بليك هاوْس» كَما وَعَدْتِ. وها إنّي اليَوْمَ أُعْطي هذا البَيْتَ لِسَيِّدَتِهِ الصَّغيرَةِ. وأُقْسِمُ أَنَّ هذا أَسْعَدُ أَيّامِ عُمْري».

بَعْدَ لَحْظَةٍ لَمْ نَعُدْ وَحْدَنا، إذْ نادَى: «وُدْكورْت!» فَظَهَرَ الدُّكْتورُ آلَن وُدْكورْت. ووَقَفَ بِجانِبي.



اِغْرَوْرَقَتْ عَيْنايَ بِدُموعِ الفَرَحِ وأَمْسَكْتُ يَدَ وُدْكورْت، فيما كانَ وَلِيُّ أَمْري يَشْرَحُ الأَمْرَ: كانَ قَدْ لاحَظَ أَنَّ وُدْكورْت يُحِبُّني. وعَلِمَ أَنَّني رَفَضْتُ عَرْضَهُ مَعَ أَنَّني أُحِبُّهُ. ومَعَ ثِقَةِ وَلِيِّ أَمْري بِأَنَّني سَأَعيشُ مَعَهُ سَعيدَةً لِأَنَّهُ مُخْلِصٌ لي، فَقَدْ كانَ مُتَأَكِّدًا مِنْ أَنَّني سَأَعْرِفُ سَعادَةً أَكْبَرَ مَعَ وُدْكورْت.

قَرَّرْنا أَنْ نَحْتَفِلَ بِالزَّواجِ بَعْدَ شَهْرٍ مِنْ ذلِكَ اليَوْمِ. ولَدى عَوْدَتِنا إلى لَنْدن تِلْكَ اللَّيْلَةَ، تَوَجَّهَ أَلَن مُباشَرَةً إلى مَنْزِلِ آدا وريتْشارْد لِيَزُفَّ إِلَيْهِما الخَبَرَ السَّعيدَ.

قِصَّة إسْتر – ١٦: الحُكْم النِّهائِيّ

بَعْدَ عِدَّةِ أَيّامٍ عَلِمْنا أَنَّ القَضِيَّةَ شارَفَتْ عَلى النِّهايَةِ وأَنَّ الحُكْمَ سَيَصْدُرُ عَنِ المَحْكَمَةِ العُلْيا. فَكانَ ريتْشارْد في حالَةٍ مِنَ القَلَقِ والتَّرَقُّبِ، لِذلِكَ قَرَّرْنا، أَنا وأَلَن، أَنْ نَحْضُرَ الجَلْسَةَ لِنَكونَ إلى جانِبِهِ.

لكِنَّنا وَصَلْنا مُتَأَخِّرَيْنِ، وكانَ الجَميعُ في القاعَةِ يَتَكَلَّمونَ مُنْفَعِلينَ، فَرَأَيْنا أَنْ نَسْأَلَ أَحَدَ الحاضِرينَ عَنِ الحُكْمِ. عَرَفْتُ إِحْدى المَوْجوداتِ هُناكَ، إِنَّها الآنِسَةُ فلايْت! فَرَكَضْتُ نَحْوَها، ورَأَيْتُ مُفاجَأَةً مَرْسومَةً في عَيْنَيْها!

لَقَدِ انْتَهَتْ قَضِيَّةُ جارنْدايْس بِلا طائِلٍ، إِذِ احْتُجِزَتْ كُلُّ الأَمْلاكِ لِتَغْطِيَةِ نَفَقاتِ الدَّعْوى الّتي طالَتْ سَنَواتٍ وسَنَواتٍ.

هَمَسَ أَلَن في أُذُني: «إِنَّ هذا الأَمْرَ، يا حَبيبَتي، سَيَقْضي عَلى المِسْكينِ ريتْشارْد!» وبِالفِعْلِ وَجَدْنا ريتْشارْد في غُرْفَةٍ مُجاوِرَةٍ يَجْلِسُ وَحيدًا في الظَّلامِ، وقَدْ أَسْنَدَ رَأْسَهُ المُثْقَلَ بِكِلْتا يَدَيْهِ. فَأَخَذَهُ أَلَنْ بِيَدِهِ، وتَوَجَّهْنا إلى البَيْتِ.



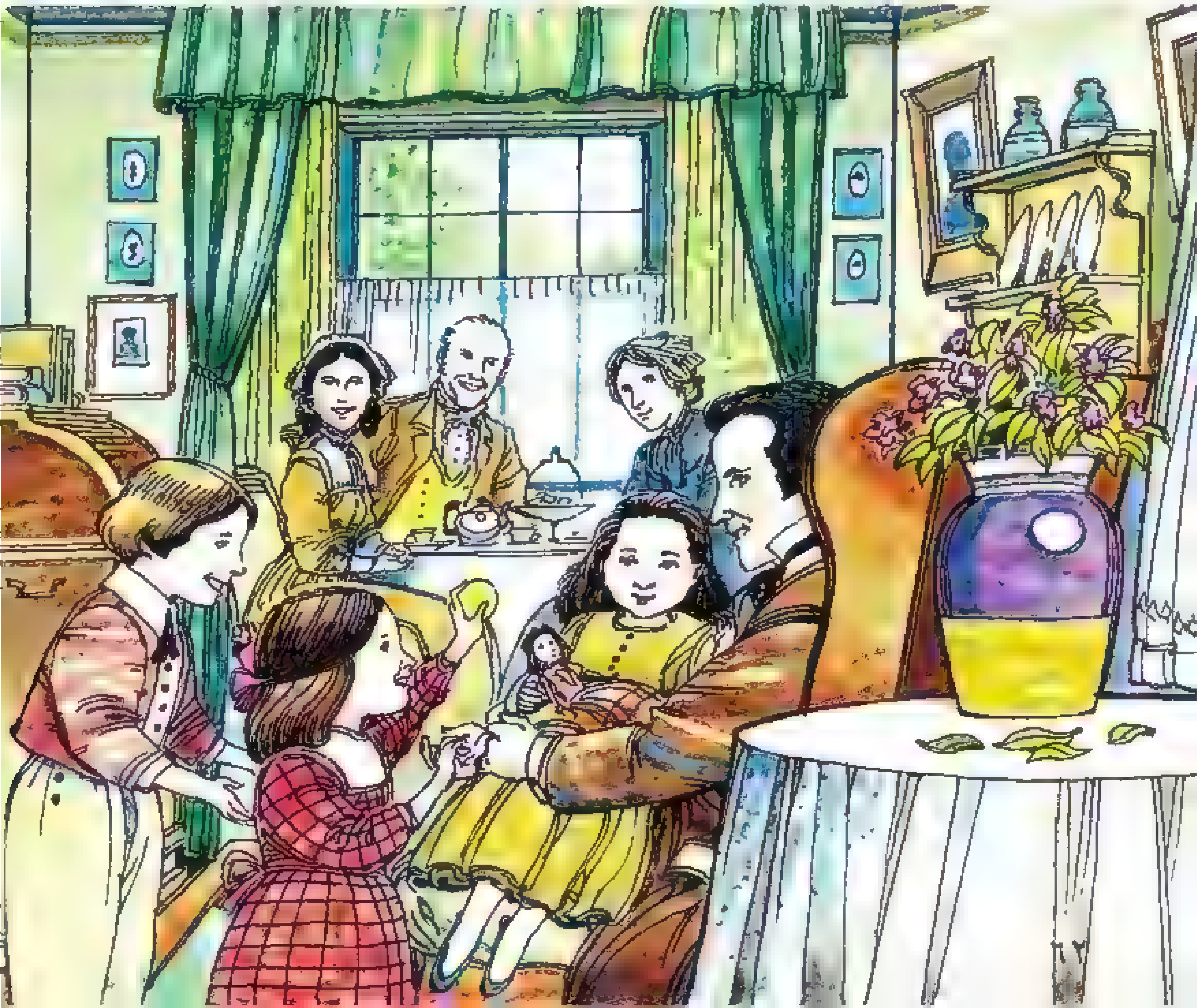
اِنْهارَ ريتْشارْد ولازَمَ الفِراشَ. ولَمّا عَلِمَ وَلِيُّ أَمْري بِذلِكَ جاءَ إِلَيْهِ. وقَدْ عَبَّرَ ريتْشارْد عَنْ أَلَمِهِ العَميقِ وأَسَفِهِ لِمَوْقِفِهِ العَقوقِ مِنْ وَلِيِّ أَمْري، ووَعَدَهُ بِتَغْييرِ سُلوكِهِ تِجاهَهُ بَعْدَ أَنْ يُشْفى مِنْ مَرَضِهِ. ثُمَّ نَظَرَ إِلى آدا وقالَ لَها: «يا عَزيزَتي آدا سَتَغْفِرينَ لي عِنْدَما أَبْدَأُ حَياتي ثانِيَةً».

وفيما انْحَنَتْ آدا لِتُقَبِّلَهُ كانَ يُغْمِضُ عَيْنَيْهِ لِلمَرَّةِ الأَخيرَةِ. كانَ سَيَبْدَأُ مِنْ جَديدٍ، ولكِنْ لَيْسَ في هذِهِ الدُّنْيا الفانِيَةِ!

خاتِمَة

مَضى عَلَيَّ، اليَوْمَ، سَبْعُ سَنَواتٍ وأَنا «سَيِّدَةُ بليك هاوْس»، وقَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ بِابْنَتَيْنِ. ورُزِقَتْ آدا صَبِيًّا لَطيفًا أَسْمَتْهُ ريتْشارْد عَلى اسْمِ أَبيهِ الَّذي لَمْ يَرَهُ أَبَدًا. وهُما يَعيشانِ مَعَ السَّيِّدِ جون جارنْدايْس الَّذي أَصْبَحَ الآنَ وَلِيَّ أَمْرِ آدا.

صَحيحٌ أَنَّنا لَسْنا أَثْرِياءَ، لكِنْ لَدَيْنا ما يَكْفينا. كُلُّ النّاسِ يَنْظُرونَ إِلى زَوْجي العَزيزِ نِظْرَةَ احْتِرامٍ وتَقْديرٍ. وهذا الصِّيتُ الحَسَنُ -إذا أُضيفَ إِلى مَحَبَّةِ زَوْجي وابْنَتَيَّ- هُوَ نِعْمَةٌ كُبْرى مِنَ اللهِ.





تشارلْز ديكنْز
(١٨١٢ -١٨٧٠)

وُلِد تشارلْز ديكنْز بِالقُرْبِ مِنْ مَدينَةِ بورْتسماوْث في جَنوبِيِّ إنجلْترا، وعِنْدَما بَلَغَ عامه الثّانِيَ انْتقلتْ أُسْرَتُهُ إلى لنْدن حَيْثُ واصَلَ والِدُهُ عَمَلَهُ كَكاتِبِ حِساباتٍ في البَحْرِيَّةِ. وقَدْ عانَتِ الأُسْرَةُ هُناكَ مِنْ ظُروفٍ عَصيبَةٍ لِسَجْنِ والِدِهِ بِسَبَبِ الدُّيونِ، وتَوَقَّفَ ديكنْز الصَّغيرُ عَنْ مُواصَلَةِ دِراسَتِهِ، واضْطُرَّ لِلْعَمَلِ في مُسْتَوْدَعٍ لِدِهانِ الأَحْذِيَةِ لِيُنْقِذَ عائِلَتَهُ مِنَ الجوعِ. عِنْدَما بَلَغَ الثّانِيَةَ عَشْرَةَ أُطْلِقَ سَراحُ والِدِهِ واسْتَطاعَ أَنْ يَنْتَظِمَ في مَدْرَسَةٍ لِمُدَّةِ عامَيْنِ. كانَ ذَكِيًّا سَريعَ التَّحْصيلِ، لكِنَّهُ هَجَرَ المَدْرَسَةَ لِيَعْمَلَ كاتِبًا عِنْدَ أَحَدِ المُحامينَ، حَيْثُ اكْتَسَبَ خِبْرَةً عامَّةً بِأَساليبِ المُحاماةِ وشُؤونِ التَّشْريعِ الإنجليزِيِّ، وقَدْ أَفادَ مِنْ خِبْرَتِهِ هذِهِ في كَثيرٍ مِنْ رِواياتِهِ. ثُمَّ عَمِلَ مُحَرِّرًا لِلشُّؤونِ البَرْلَمانِيَّةِ، وهذا ما سَمَحَ لَهُ بِأَنْ يَجوبَ البِلادَ شَمالًا وجَنوبًا مُتابِعًا لِخُطَبِ كِبارِ السِّياسِيِّينَ.

كُلُّ هذِهِ الخِبْراتِ المُتَنَوِّعَةِ، بِالإِضافَةِ إلى ما كانَ يَتَّصِفُ بِهِ ديكنْز مِنْ دِقَّةِ المُلاحَظَةِ، مَكَّنَتْهُ -فيما بَعْدُ- مِنْ وَصْفِ النّاسِ بِواقِعِيَّةٍ شَديدَةٍ. وفي عامِ ١٨٣٦، عِنْدَما بَلَغَ الرّابِعَةَ والعِشْرينَ مِنْ عُمْرِهِ، نَشَرَ الجُزْءَ الأَوَّلَ مِنْ «مُذَكِّرات بيكْويك» [Papers of the Pickwick Club] الّتي حَقَّقَتْ نَجاحًا سَريعًا. ومُنْذُ ذاكَ

كَرَّسَ حياتَهُ لِأعْمالِهِ الأَدَبِيَّةِ الشَّهيرَةِ. وخِلالَ السَّنَواتِ السِّتِّ التّالِيَةِ أَلَّفَ عِدَّةَ رِواياتٍ، مِنْها: «أوليفَر تويسْت» [Oliver Twist] و «نيكولاس نِكِلْباي» [The Life and Adventures of Nicholas Nickleby] و «بارْنَبي رَدْج» [Barnaby Rudge]. وتَوالَتْ، بَعْدَ ذٰلِكَ، باقي أَعْمالِهِ، وأَهَمُّها: «تَرْنيمة عيد الميلاد» [A Christmas Carol] و«ديفيد كوبرفيلْد» [David Copperfield] و«بليك هاوْس» [Bleak House] و«أَوْقات عَصيبَة» [Hard Timed]. وفي عامِ ١٨٥٩، أَتَمَّ رِوايَتَيْهِ: «قِصَّة مَدينَتَيْنِ» [A Tale of Two Cities] و«الآمال العُظْمى» [Great Expectations].

تَمْتازُ رِواياتُ ديكنْز، فَضْلًا عَنْ كَوْنِها مُمْتِعَةً إلى حَدٍّ كَبيرٍ، بِأَنَّها ذاتُ أَبْعادٍ اجْتِماعِيَّةٍ وأَخْلاقِيَّةٍ، فَقَدْ كانَ مُصْلِحًا اجْتِماعِيًّا مُحِبًّا لِخَيْرِ البَشَرِيَّةِ، وكَشَفَ النِّقابَ عَنْ مَساوِئِ الفَقْرِ وقَسْوَةِ قانونِ العُقوباتِ ونُظُمِ السِّجْنِ وعَدَمِ رِعايَةِ الأَطْفالِ وعَجْزِ نِظامِ التَّعْليمِ. واسْتَطاعَ بِذلِكَ أَنْ يُثيرَ الاهْتِمامَ بهذِهِ القَضايا الاجْتِماعِيَّةِ، وأَدَّتْ جُهودُهُ إلى الكَثيرِ مِنَ التَّحَسُّنِ الّذي طَرَأَ عَلى هذِهِ الأَوْضاعِ في بِلادِهِ.



كتب الفراشة ـ القِصص العالميّة

١ - الدُّكتور جيكل ومِستر هايْد
٢ - أوليفَر تويسْت
٣ - نِداء البَراري
٤ - موبي دِك
٥ - البَحّار
٦ - المخْطوف
٧ - شَبَح باسْكِرْفيل
٨ - قِصَّة مَدينَتين
٩ - مونْفليت
١٠ - الشَّباب
١١ - عَوْدة المُواطِن
١٢ - الفُنْدق الكبير
١٣- حَولَ العالَم في ثمانينَ يَومًا
١٤- رِحْلَة إلى قَلْب الأرض
١٥- كُنوز الملِك سُلَيْمان
١٦- سايْلس مارْنَر
١٧- شيْرلي
١٨- رِحلات جاليفَر
١٩- بعيدًا عن صَخب النّاس
٢٠- مُغامَرات هاكلبري فين
٢١- ديفيد كوبرفيلد
٢٢- البيت المُوحِش (بليك هاوْس)
٢٣- المهر الأسود (بلاك بيُوتي)
٢٤- جين إير
٢٥- روبنسون كروزو
٢٦- جزيرة الكنز
٢٧- مرتفعات وَذَرِنْغ
٢٨- الأمير والفقير
٢٩- توم براون في المدرسة



كتب الفراشة

القصص العالمية ٢٢. البَيت الموحِش (بليك هاوس)

هذِهِ رائِعة أُخرى لِلرِّوائيّ الإنجليزيّ تشارلْز ديكنْز. تدور أَحْداث «بليك هاوس» في إنجلْترا - وخُصوصًا لنْدن - في النِّصْف الثّاني مِنَ القَرْن التّاسِعَ عَشَرَ. وهي تَزْخَر بِمَجْموعة مُتنوِّعة مِن الشَّخصِيّات النّابِضة في حَبْكَة آسِرَة، إذْ تَتَلاحَق الأَحْداث وتَتَصاعد بِشَكْل مُثير.

لكنْ، أَهَمُّ ما يُمَيِّزُ الرِّواية طابَعُها الإنْسانيُّ ونِظْرَةُ ديكنْز الثّاقِبَة إلى النِّظام الاجْتِماعيّ وفَساده، والْتِفاتُه إلى التُّعَساء والمُعذَّبينَ مِن بَني البَشَر.



مكتبة لبنان ناشرون

